

محاضرات في تاريخ الإسلام الحديث



تأليف الدكتور
الشيخ محمد الحصري بك، أستاذ بوزارة المعارف
ومدير ثانوية الاسودى بالجامعة المصرية

بالتعاون مع

مطابع من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصر
لصاحبها: مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

(جميع الحقوق محفوظة)

مطبعة الانشقاية
شارع أم الرشاش رقم ١٢ بميناء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فقد عهد إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الأمم الإسلامية فقامت بما عهد إلى به على قدر ما منحت في العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وهما هي ذى تعرض على المؤرخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة الاستفادة التاريخ العربى من كتبه .

هذا وإني أعلن شكرى الوافر وثنائى العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلت من ثقته حتى اعتمد علىّ فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى وإخلاصى رجل المهمة والعزيمة الأمير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوة عزمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الأمام . فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويستدده فى القول والعمل إنه نعم المجيب ؟
محمد الخضرى

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وأبغاه ذخر أمانه خاصة والإسلام عامة وأقرعته بولى عهده المحبوب سؤالا مير فاروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المحاضرة الأولى

في التاريخ الإسلامي

مباحث التاريخ الإسلامي - ما يلزم المؤرخ - جزيرة العرب
ووصفها - شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذي جاء به سيدنا محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهياها لأن قسيع إلى ما جاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين فتورخ الإسلام يرجع بحته إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضا الأول - الدين الإسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقفت في طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثاني - تأثيره في النفوس العربية حتى استعدت لبط سلطانها على ما جاورها من الأقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادا إلى سلطان الدين

الثالث - ما كان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التي دانت بالإسلام وما كان الدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الأمم التابعة لسلطانها

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثير به لأول مرة هم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالم قبل مجيء الإسلام لتكون أماننا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أننا نقدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكما تضيق به الفائدة من دراسة التاريخ فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد في تأويل

الحوادث بوجه ليس فيه غضاظة حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته . وعاطفة الكرامة تدعو إلى ضد ذلك فتجعل الحسن قيحا وتستبطن من الخير شرًا ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذى يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من نجارب الأمم إلا نفر قليل جدا . وإذا نظرنا إلى أنفسنا نجد أنها لا تحكم على شيء من الحوادث التى تشعر بها حكما بحسب ما تستحق قرب فعل صدر عن نجه فتحمله محلا حسنا جميلا والفعل نفسه يصدر عن نبغضه فتحمله على أسوأ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء والمعوزين فى حال رغبته ولأنابه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مرآة يحجب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف فى دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل إليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت فى بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعه ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتى الحب والبغض

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التى نشأوا فيها «جزيرة العرب» مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء كما قال ياقوت ^(١) فى معجم البلدان نقلا عن هشام ^(٢) بن محمد السائب عن ابن عباس ^(٣) إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من

(١) هو ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى الأصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب (٢) نسبة عربى له كتاب الجهرة فى النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفى سنة ٢٠٤ (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب جد الملوكة من بنى العباس . من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنة ٦٨

جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن
الفرات (١) أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين (٢) ثم انحط على أطراف
الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة (٣) والآلة (٤)
وامتد إلى عبادان (٥) وأخذ البحر في ذلك الموضوع مغرباً مطيقاً ببلاد العرب منعطفاً
عليها فأتى منها على سفوان (٦) وكاظمة (٧) إلى القطيف (٨) وهجر (٩) وأسياف
البحرين (١٠) وقطر (١١) وعمان (١٢) والشحر (١٣) ومال منه عنق إلى حضرموت (١٤)
وناحية أبيين (١٥) وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك (١٦) واستطال ذلك العنق فطمعن

(١) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى إذا قرب
البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً في خليج عمان من بحر الهند (٢) قنسرين مدينة جنوبى حلب
وكانت اسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ
(٣) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب في خليج عمان مصرت
أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ

(٤) بلدة على شاطئ الهيرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة
(٥) مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة في خليج عمان منسوبة إلى عباد
ابن الحصين وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه
(٦) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين
(٧) جوق على سيف البحر وهي المنزلة الثانية في جادة البصرة إلى البحرين (٨) مدينة
بالبحرين وهي قصبتها (٩) مدينة بالبحرين وقيل وهي اسم كورة من كور البحرين
قصبتها الصفا (١٠) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي
وعمان في أيام بنى العباس عملاً واحداً . وسيف البحر ساحله (١١) قرية على سيف
الخط بين عمان والعقير وهذه بخلاف هجر (١٢) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند
وتسمى إلى البحرين وقصبتها مدينة صهار (١٣) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت
وعمان (١٤) ناحية واسعة في شرق عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى
شباب (١٥) بخلاف باليمن منه عدن (١٦) جزيرة في بحر اليمن وهو مسمى بين بلاد اليمن
والحبشة وكانت مسمى في زمن بنى أمية

في تهاثم اليمن بلاد فرسان^(١) وحكم^(٢) والأشعريين^(٣) وعك^(٤) ومضى إلى جدة^(٥) ساحل مكة والجار^(٦) ساحل المدينة ثم ساحل الطور^(٧) وخليج ايلة^(٨) وساحل رايه^(٩) حتى بلغ قلزم^(١٠) مصر وغالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين^(١١) فزبعسقلان وسواحلها وأتى صور^(١٢) ثم سواحل الأردن^(١٣) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى غالط الناحية التي أقبل منها القرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة^(١٤) إلى سواد العراق

وهذا التحديد وإن كان سهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضى أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فإنهم

- (١) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي
- (٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد من قضاة ثم من حمير ينسب إليهم
- (٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعري بن ادد من كهلان بن سبا ينسب إليها أبو موسى الأشعري (٤) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان من الأزدي ثم من كهلان (٥) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة
- (٦) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع (٧) شبه جزيرة في شمال خليج القلزم وهي كورة مصر (٨) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجاة بين مصر ومكة (٩) كورة من كور مصر البحرية (١٠) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدئ من المنذب وبها سمي الخليج والمسافة بينها وبين القرما التي كانت على بحر الروم مقدار القناة والاولى في مكان السويس والثانية في مكان بورسعيد (١١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها البيت المقدس ومرفؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان (١٢) مدينة من أعمال الأردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عك ستة فراسخ (١٣) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعك وما بين ذلك والأردن نهر يصب في بحيرة طبرية (١٤) وهي الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أفر

يحتون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءاً مهماً من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لا بد من القول أن هناك تسامحاً في إطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي :
تهامة - الحجاز - نجد - اليمن - العروش

فأما تهامة ويقال لها الغور فهي الأراضي التي على شاطئ بحر القلزم ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحز إذا اشتد وسموها غوراً لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام ^(١) يزيد كسريوم في بعض المواضع وقد ينقص مثلها في أخرى فبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرق عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان في بعض جهاتها ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقيه يبتدى جنوباً من أدنى حدود اليمن وينتهي إلى السماوة وينتهي من الشرق إلى العروش وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع أرضه

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهامم والنجد

وأما العروش فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسابل أودية فيه وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠ ك وتكون الأربعة أيام ١٤٢ ك تقريباً

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحارار جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أهدتها السيول ليجرى فيها ماؤها والصحارى الرملية المتراصة الاطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبث الكلاء والمرعى فتتمكن أهله من الإقامة فيه حيث يجدون ما يشربون ويسيمون فيه أنعامهم وما بعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى فى بلاد انى تميم ببادية البصرة يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه منعجا ثم فى غطفان فيسمونه الرمة ، وهو أول نجد . ويصب فى الرمة أودية أخرى أكبرها وادى الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بنى فانه يحسينى * إلا الجريب فانه يروينى

ثم يمر فى بلاد طيء فيسمونه حائلا وهو واد فى جبل طيء ثم يمر فى بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم فى بلاد تغلب فيسمونه سمودى وإذا انتهى اليهم عطف إلى بلاد كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخالج من العرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل فى سواد الكوفة ومتى أخصبت الدهاء ربت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها ، طيبة التربة ، طيبة الهواء

وببلاد اليمن كثيرة الوديان منها ما يقطع السراة حتى ينتهى إلى البحر ومنها ما هو على عكس ذلك الاتجاه

فن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلوه فى العظم وبعد المأتى وادى زيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرق وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع السدس مأرب ويسقى بعدها أرض الجنتين وأرض السبئين

وهناك وديان كثيرة فى الجوف بين الجبلين

العرب تسمى المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضاً وهو جمع روضة وذلك الاسم

خاص بما يكون في الأرض الواطئة فإن كانت في أعلى البراق^(١) والقفاف^(٢) فهي السلقان واحدها سلق وإذا جاءت المياه أنبتت ضروباً من العشب والبقول لا يسرع إليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمى^(٣) ربت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلاً في ميل فإذا عرضت جداً فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ إما في روض وإما في واد. وحدائق الرياض ما أعشبت منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يفيض ومنع الرمل السماث أن تنشعه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء.

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تحتاج الجزيرة كان الجذب أغلب عليها ولا سيما أن كثيراً من مياهها يفيض في باطن الأرض فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاونة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجاري الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبني سداً محكماً يحجز الماء خافه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويفيض في الأرض ولهذا دلت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الأشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التي لا تروى إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلاً في بعض سهولهم القريبة من الوديان - وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الأودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من

- (١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً (٣) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثاني يسمونه الولي

مائه يفيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل
ومن هنا قلنا كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وإنما يتبعون مواقع
القطر أنى كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها
وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما يستدعيه
ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان - بحكم الضرورة - عدم الاعتماد
على ما تنبت الأرض من المزروعات الدورية التي لا تصلح للإنسان كان جل اعتماد
أهل البادية على إنعامهم ولا سيما الإبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسبون
بوبرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحارى المقفرة إلى ما يرومون من الجهات أما بلاد
اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر
من أى جهة أخرى في الجزيرة لأن تمدين المدن في غير السواحل البحرية يعتمد على
المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جـو البلاد

أما ما كان من الجزيرة تها ميأ بجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان
البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر في الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصاً
الحرار منها السوادلونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمثال
أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسائل المياه فإن الهواء يكون به معتدلاً
وما بعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهو أوه معتدل في فصل الشتاء والخريف ، أما الربيع ففيه المطر الكثير
والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف

مخاج الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى
مخجة ومعرفة هذه المخاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب
فإنهم إذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المخجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على
جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر إلى البصرة أو الكوفة فإن لم يكن للمطلع علم
بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الحمداني المتوفى سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك . ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة إلى مكة وهي تفارق الأولى من معدن القرة في الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلاً منها

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن القرة الذي يلي منزلة النجاج وجادة البصرة إلى مكة ولا تمر بالمدينة ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ : وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها حجة عدن تلتقي مع حجة صنعاء في منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة ولحضرموت محبتان منها العليا وتتقابل مع حجة صنعاء في صعدة ومنها السفلى وتتقابل مع حجة صنعاء في تبالة وتمر على نجران ومنها حجة البصرة إلى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

(الشعوب العربية)

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها إلى شعبين عظيمين الأول شعب قحطان والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فهذه بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيه ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنه ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى اسم القبيلة التي اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذ في بالوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الأرض أوفى البحر فأقاموا بآبار سداً

وصفه ياقوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠٠ ق م كما قاله العالم سيديو وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فهم من يقول إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن يهدم السد ، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصَدَقَها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال إن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزراع كما كانت

ونحن نرجح الرأي الأخير لسببين

الأول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خير لا يقطع أملاً خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره

الثاني أن الكتاب لما تص علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل) فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وعن سار على هذا الرأي العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأي كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو من بقايا سيد ولداً لآزد من كهلان خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرتهم من ولداً لآزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرقاد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ونها ناس من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغريخيل ، والنو من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة وتخرج عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم وجديس فنزلها وأستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الأزد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم أزد شنوءة وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة للفسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

ومن ترك اليمن من كهلان ثم من بني أدد بن زيد قبيلة لحم بن عدى الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا - عمرو ابن عدى بن نصر الذي ملك بعد جزيمة الوضح

ومنهم طيء . ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجليلين أجاً وسلمى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان في الشمال الشرقى من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لماهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر : قال شاعرهم عارق الطائي

ومن مباح عمرو بن هند رسالة * إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد
أي وعدنى والرمل بينى وبينه ؟ * تأمل رويدا ما أمامة من هند
ومن أجاً حولى رهان كأنها * قبائل خيل من كيث ومن ورد
ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاة أقامت بيادية السمارة وهى في آخر شمال نجد
وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمنية واحتلت أخصب الأراضى العربية الشمال والغرب
وبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد
ومنهم الملوك والأقيال .

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه - معيشة العرب من بدو ومن حضر
حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فهذه مكة وماجاورها من أرض الحجاز وتهامة فإن عدنان -
باجماع كلمة المؤرخين من العرب - ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الذى جاء مكة
وساكن جرهم وصاهرم والكتاب ينسب اليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام (ولاذيرفع
إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ولم تزل
أبناء إسماعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب
العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية
وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فنه أباد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان
كثرت بطونهما
وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا
يناصون مضر فى الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام
ومن ربيعة عبد القيس ابن أفضى ومنها بكر وتغلب ابناوائل . ومن بكر حنيفة
وعجل ابناالجيم
وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس
ابن مضر
وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان
ومن غطفان ذبيان وعيس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغبى بن أدصر
وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن
خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر
ابن كنانة
وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمع وسهم ابناصيص بن كعب

وعدي بن كعب وعزموم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبدالدار
ابن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل : هبشمس ونوفل وعبدالمطلب وهاشم . وبيت
هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم ، والعباسيون
أولاد عباس بن عبد المطلب والعليويون أولاد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثروا أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها
متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلى البحرين فأقاموا
بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجىء
الإسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوى من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم
وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان
أميرهم عند مجىء الإسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الأعشى

من ير هوذة يسجد غير منثب إذا تعم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها لا ترى عيا ولا طبعها

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتزوج معدى قط وإنما كانت التيجان لليمن فسأله
أبو عبيدة عن هوذة فقال إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يحير لطيمة كسرى
في جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة
إلى البحر فأطراف سواد العراق فالابتلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها
بطون كانت تسكن بكرأ وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب
من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرق المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي
إلى الحرة فتلك ديارهم لا يخاطبهم إلا ببض الأنصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهو ازن في شرق مكة بنواحي أوطاس - وهي على
الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرق تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار يحتر من طيء
وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران وبقي بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة
وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرقون لأنجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن
كلاب لجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة إلى مساكنهم - إلى حضروهم سكان المدن . وبدو : وهم
الذين يقيمون في البادية . إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم إلا في ذلك
الجزء الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجذور :
وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب ، وهو ما استتبعه . ويغلب على خلق
هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعنجهية

أما الحضرة : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها بلاد اليمن
فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض :
وفيها زيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفي شمال اليمن مكة : وهي تهامة
والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفي نجد حائل وفي العروض حجر -
قعدة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها
من كل صوب لشراء ما يبيعون ويبيع ما تحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسرى
والنعمان لطائم يرسلان إلى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الأعراب كبير
من كبار العرب تحمل البز والثياب وما يحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان
إحداهما للشام في زمن الصيف . والأخرى لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت
تتجر بمحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافئ تجارية كبيرة ولم
يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل ، وإنما كانوا يتعاملون بنق دالتين
المجارتين لها وهما الفرس والردم

صناعة العرب

أما الصاعات فكانوا أبعد الامم عنها حتى أن البدو مهم كانوا يحتقرونها ويعيرون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للمرزدق وكلاهما من نميم لانهجده أكثر من أن أحد أبناء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيرون أهل اليمن بدباغة الجلود لأن القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعملوها فيما تصلح من النعال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب ويقول قائمهم هم بن داغ جلد وناج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل - وكاوا يرجمون في صناعة الناء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من نساء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورق في زمن العباس : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

(أحوال العرب)

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية ، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبنى عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعني بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التسعة لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بوث العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله - ونريد بالأهل خصوص الزوج يظلم العربي من زعم أنه كان يظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإننا إذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقائه إلا المرأة التي إن رقى في نظرها فقد رضى الناس كلهم عنه ، وترى ذلك اضحاً حلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العنسي شيخ الشحدان ثم انظر إلى أي شجاع من العرب ، فإن كان لا

يوما فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى فى زواج ببقى فكان منى
ومنها كيت وكيت لو قال هذا القابلته النفوس بالاستنكار لأنه ليس من مألوف عادات القوم
من ذلك يمكننا أن نقول إن علاقة الرجل العربى بأهله كانت على درجة من الرقى
أكثر مما يخيّل إلينا وكان لها من حزية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيطر
بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الإسلام وهى مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأى إلا أن
الرجل كان يعتبر - بلا نزاع - رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط
بالمرأة بعقد الزواج بعد رضا أوليائها ولم يكن من حقها أن تفنات عليهم بذلك وهذا
الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان
الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان
ولم يكن ذلك أمراً مستحسنًا عند جمهورهم إذ المعروف عن العربى من غبرته على أهله
ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك

فإن الخطأ بعد ذلك أن يقال إن الزواج كان عندهم على أنواع وبدرج فى ضمن هذه
الأنواع تلك المساحات

وكانوا يعدّون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حدّ معروف إليه ينتهى الأمر
فى هذا التعدد فقد ورد فى الصحيح أن غيلان الثقفى أسلم وتحتة عشرة نسوة
وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن
فكنّ يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدّها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد
منهم آخر معه ظعينة وأيس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حاف تقاتلا فإذا قهر
صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون
هذه أمهم يلحقهم العار فى مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه
حرة نسبية لا سبية جلية وإن كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة
فى نفي العار عنه كما قال عنزة :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحى سائرى بالمنصل
وكان كبار العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون

لهم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا في أول ذلك أنهم تخيروا أمتهاتهم
وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون أنواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والأخت والعمة والخالة
ومن غرائب ما يحكونه عن اقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم أنه تزوج بنته
دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند
المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويقيم برأيها ولذلك كانت تسكون معه في غزواته

أمام معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعا حصينة يتق
بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شا كل
ذلك وكان لهم من الحق على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

ولنما أولادنا يئنا أكبادنا تمشى على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يشدون بناتهم «ولإذا بشر أحدهم
بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم» يتوارى من القوم من سوء ما يبشر به أيمنه
على هون أم يدسه في التراب ، ولم يكن هذا في جميع العرب بل كان في بعض بطون من
تميم وأسد ولم يكن بالطبع إلا في طبقة محدودة منهم لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله
منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة في قول السكناج (ولا تقتلوا أولادكم خشية
إملاق نحن نرزقهم ولما كنم)

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه وكان يشتري
البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن
غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة
العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه دنيا فبينها هذه الجملة التي قالوها انصر أخاك
ظالماً أو مظلوماً ، وكانوا يسرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء
به الإسلام لأن الإسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أماهم فكانوا ينصرون
لأخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم
والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله السنة الشعراء بما يغض من كرامته

وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القيلة جمعا من جراء حادثة لم يقوموا فيها
بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح لابي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لوثه لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي - وإن كانوا ذوى عدد -	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق الخشيتة	سوامهم من جميع الناس إنسانا

وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على
أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل
والأمر واحد في الحلفين

بينما هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس
بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت
لاختها بالمرصاد تنتهر الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد
بلغ منها الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين
بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة
وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها
العصية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في
حروبهم والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول - التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد فإننا نعلم أن حياة العرب
كانت على مراعيهم التي يسمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون وهي
محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلاء والماء
وأكثر ما يبتدى ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فإنهم قديمتنازعون فيمن
يرد الماء أولاً أو في نفس المراعى فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من
الافتراق بدأ فيزح أحد الأخوين عن داره مرغماً إلى مكان آخر هو وأولاده ومن

يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يحسمها النقل ، وإذا تقارب مكان البطين كان العداء أبقى : وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقيين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك في عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعي ، فاستغربت ذلك وسألت ذوى الأسنان منهم عن سببه فأخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني - تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما الآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمرأ في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الأنساب ، المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون إليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف إنما كانوا في بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مرديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراما

ولإذا كان الحكم عارفا بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فإنه قال لهما أتتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يحمله شاهرأبلهيه ويزيد

في نفسه نكرة الجاهلية كما فعل الأعشى في هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها
عامراً ويزعم أن الحكم قضى له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة السنة الشعراء فقد
كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعتد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة
الأخرى وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بذلك
السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص
لأن كل شاعر يعتد مثالب القبيلة التي تعادى قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة
وفيها اليوتات الكريمة قد سمت على لسان شاعر بما يستحي الإنسان من إنشاده
ولم تسلم من ذلك الشرقيلة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحاج شوب نار الحرب بينهما
إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشوب
نار الحرب وتيتم الأطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب
والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها
في بعض الأحيان تافهة كما كان في حروب النجار وفي البعض الآخر تراها أموراً
يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عيس وذيان وبين بكر وتغلب ولكن
الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المأصل في القلوب لما ذكرناه



المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة - من هذه الجهة - قسمين القسم الأول منهم ملوك متوحون إلا أنهم يرجعون إلى ساطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثاني : رؤساء عشائرهم ما الملوك من الحكيم والامتيار إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تنعية لملك متوج

القسم الأول

الملوك المتوجون

ملك اليمن

إذا نظرنا إلى المولدين بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المتزامنة إلى الوراثة وتحديد ما يؤول إليها - السنين والأيام - منها هم قد فقدوا - لا شعور - في ذلك - ندرن هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تعنى من الحق شيئاً

يقولون إن قحطان بن عابر المعبود في الوراثة يقطان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكاً متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة أنه كان ملكاً على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه إن أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة ساطانهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طي. ثم على الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم.

ويروون عن ابنه ذى منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلى أقصاها وأن يأسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادى الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادى وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى وليس وراءه مذعب فلا يتسكعن ذلك أحد . وإن تبعنا دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد بها وخلف بالتبث اثني عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل إلا إذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبدالرحمن بن خلدون المغربى (المتوفى سنة ثمانمائة وثمانية) فى مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر ، وكذلك على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم فى موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم إنما كان رئيسا على خلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فإن نزع منهم نازع أو نبغ منهم تابع فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من خلافه - فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطن ولا آباءه ولا أولاده ولكن كالذى يكون من بعض من يشردون من المناصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فإذا قصده الطلاب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من خلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم يذشم عند خوف الطلاب راجعا إلى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل خلافه بالطاعة أو يؤدى له خرجا

وقال فى موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الأول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخر ، إذ لم يكن من الأمر الدائم فإن دام شيء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره فى الموضع الذى هو به لا يملك بنفسه اه فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا فى أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء فى بعض الأحيان من يوسع

سلطانه إلى ما يجاوز مخالفه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة التغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابه

وكانت حير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو مدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ما وراء مخالفه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعا لا يستحق هذا اللقب غيره ، حتى إذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا التغلب أو في أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك . . . سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودي

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضا

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك إسرائيل ورأت عظمة ملكة وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بذلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل إليها مهتداً (ارجع إليهم فلتأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حوالها من تلك الأصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك . ومن أشهر من ملوكهم يوسف ذونواس وكان يهودياً

قرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذى نواس إلا أن مثل بهم حرقا بالنار سنة ٣٤٤ هـ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذوى نواس فبعث إليه قائدا حبشيا اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذو نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل أرياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء وأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام ^(١) في سيرته بأنها الحصبة والجدرى : وروى أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد نهزماء وتوفي بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة في سورة الفيل وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثانى مسروق

كان فى ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعه إلا العجز وهو سيف بن ذى يزن الحميرى فرأى من الضرورى أن يستنجد بأحد الملوك العظامين ملك الروم أو ملك الفرس : ولكنه أخفق فى استنجاهه بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشير : أن فوعده كسرى خيرا ثم شغل عنه حينئذ من الزمن فمات سيف ^(٢) فذهب ابنه معد يكرب إلى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته أن يعين معد يكرب لما كان لهم من الأمل فى امتلاك اليمن فأمدته بجند يقوده أحد الاساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأبله وقطعوا خراج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقاتلهم الحبشة فاتصروهم وهرز من معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توجه وهرز معد يكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جندا من الفرس كانوا يسمون بعد بالآبناء وينسب إليهم فيقال آبناءوى

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميرى المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن إسحق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد فى السير (٢) بهض المؤرخين يروى أن سيفاً هو الذى ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعودة الملك ، وعن وفد عليه عبد المطلب ابن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان معد يكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله وما زالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم بادان الذى كان على عهد الفتح الإسلامى لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلى الإسلام فجاء الإسلام وصنعاء لىالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له الخراج ولم يكن ملكه عاما بل كان هناك أقبال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم كتباً مستقلة بصفتهم أقبالا كما كتب إلى العمان قيل ذى رعين ومعاقر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد أن انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ ق . م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة وهى أن يسجل على بلاد الفرس ضعفا أبديا لا يتمكنون معه لإعادة الكثرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التى كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذى نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الأكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءاً مهماً من ريف العراق كان قبل ملكاً للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحمهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التى كانت لهم من قبل رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هداسيا في رحيل جمع من قضاة إلى الشام . رد ن له

أهل الحيرة والانباء . وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ماكة إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام هرب الشام الذين اصططعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد أربأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليحجى بتجارة من العراق فذهب وأمر عمرأ أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الفرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذى أعدته لهربها فأدركها عمرو فصت سها وقالت يدي لا بيد عمرو ؛ ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرائبها يشكر صحتها المؤرخون من الإفرنج ؛ ويقولون إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وايت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السמידع الذين سكنوا بلاد العراق وبراى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر أووليانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نحبا وذلك في المدة بين سنتي ٢٧٠ ، ٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالى سنة ٢٦٨ م

وبعد موت جذيمة ولى أمر العرب عمرو بن هدى بن نصر اللخمى وهراؤل ملوك اللخميين بالحيرة ومدينتهم من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدينتهم سنة ٣٦٤ إلا أن الملك قد انقطع

فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أدشير ولم تزل الملوك من بني نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الإباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدهو مزدك فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوهم إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر السكندی الذي كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي

ولم يزل ملكاً حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضرراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً من دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحارث بن عمرو وكان بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيـل من تغلب وإياد وبهراء فلاحق بأرض كلب فنجوا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعنهم عمرو بن كلثوم التغلبي في مملـقته فأبوا بالتهاب وبالسيابا ٥ وأبوا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في دار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه -حجرا على بني أسد بن خزيمه وعطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معديكرب على قيس عيلان وملك ابنه -لمة على تغلب والنمرين قاسط وبني سعد من نعيم . ولم يكن هذا الملك بالشئ الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لاخذ النار عن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فأب بالفشل بمد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه إلى ملك الروم واستنجاده به على قلة أبيه

ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر في عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر

المكنى بأبى قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى انتقاما منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الامر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل اليه يطلبه يخاف النعمان عاقبة الامر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحمروه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلا حتى ورد ذاقا ونزل على بنى شيان سرا فلقى هانىء بن مسعود الشيباني وكان سيدا منيعا واليت من ربيعة في آل ذى الجدين لقيس بن مسعود أخى هانىء وكان كسرى أطعمه الأبله فذكره النعمان أن يرفع اليه أهله لذلك وعلم أن هانىء يمنع عما يمنع منه أهله وولده فأورداه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشراف طيء وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانىء حمية وآذنوا الملك بالحرب وأمر إياسا أن يسير اليهم بالحنود ومعه مرزابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بنى شيان قال لهم هانىء يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركبوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام لحظة ابن ثعلبة العجلي وقال يا هانىء أردت نجاةنا فألقينا في التهلكة وردت الناس وقطع وضن الهوارج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فإنه عليه السلام ولد ثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكما فارسيا كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل الحخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقى من بنى نصر بالعراق جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعیف جدا كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملا للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدى لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبغوه وإن شاءوا عزلوه . ولم يكن ساطعا هم على فائن البدر سلطانا تاما وإنما كان اسمياً

لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان
أحياناً ينتصر عليهم إذا قاموا في أما كنهم وأحياناً يخفق لأنهم يتركون منازلهم
ويجتمعون بباديتهم فلا يمكنه أن يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن
ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو السكندی قال يوماً لجلسائه هل تعلمون
أحداً من العرب يأنف أن تخدمه أمى قالوا ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم
التغلبى فإن أمه ليلى بنت مهمل وعمرها كليب وائل وزوجها كلثوم وابها عمرو فسكت
عمرو على ما في نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هنداً
بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل
على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل ملكته
طعاماً وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السراشق وليلى أم عمرو مع هند
في القبة وقد قال ابن هند لأمه إذا فرغ الناس من الطعام فنجى خدمك عك فإذا
دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومرىها أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به
ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناولينى ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة
إلى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى : واذا لاء يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم
فتار الدم في وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في
السراشق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في
ذلك شاعر التغلبين :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا وأمسك من ندمانه بالخنق
وقال ابن كلثوم في معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقلبك فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويدا متى كما لأمك مقتوننا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء - قبلك - أن تليسا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الإمارة بالحجاز — الحكم عند العرب

الملك بالشام

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن إلى ريف العراق كان من قضاة قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجهم بن سعد بن سليح ويقال لهم الضجاعة نسبة إلى أبيهم ضجهم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدوني وفترحاته فاصطنعهم الرومان لينعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس ولولوامهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهولة وقد مكثت الضجاعة عهدا طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من دشائهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم واتصر عليهم فوله الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمال الملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جلة بن الأييم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان في جفنة بالشام مدينة اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي

وكان حسان بن ثابت كثيرا ما يمدحهم لأنه ينتمى إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يفشون حتى ماتهم كلابهم لايسألون عن السواد المقبل
وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم
ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي
واد وراء الأنبار على طريق الفرات - إلى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين
الحارث الأعرج بن أبي شمر جولة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في
هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه
أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم
الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولى بعد أبيه أراد الانتقام
له لجهاز جيشا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين
وكان لهؤلاء الظفر أيضا

الإمارة بالحجاز

كان يلى أمر مكة ولاة من جرم قحطان - وهي جرم الثانية - ولما جاء اسماعيل
مكة مع أبيه إبراهيم صاهرم : وكان لأولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما
لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شيء . ولما ارتحل الأزدي من مأرب
بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب
جرم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا . أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا . صروف الليالي والحدود العوائر

ووليت خزاعة أمر مكة حيناً من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا
وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وتبقى بمكة أولاد فهر بن مالك وهو
قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء تقي بن كلاب وهو
الاب الخامس لمحمد بن عبدالله ﷺ فجمع شتاتهم ووحيد كلمتهم فكانت لهم بذلك
قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، وما لم يبق إلا أمر ولاية
البيت أخذه تقي من سادته المكنى بأبي غبشان وهو صهر تقي ، ويقال إنه اشتراه
منه بزق خمر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التي كونها من عصية فهر

ابن مالك وبهذا كانت له السيادة النامة والامر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت بجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة فقيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لايفتح بابها إلا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها
(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونهابشئ من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذاوردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج - على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصباً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبدمناف قدساد في حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبدالدار الذي كان أسن من عبدمناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم يناع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبدشمس والمطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتداء النزاع بين بني العم ، وسببه المنافسة في الشرف وافترة قريش فرقتين : فرقة تساعد بني عبدمناف وفرقة تساعد بني عبدالدار ؛ وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصالح على طريق لايفض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح لجلوا لبني عبدالدار الحجابة واللواء والندوة ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبدمناف فكان هو الذي يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الإسلام والامر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخرى لاتسارى هذه في العظم — وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش

حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً عما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بعصية الحروب لم يسلموا من المداغمة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه وكان أمية مثرياً من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً إلى حد شوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانهط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من الجأ إليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهر أحرما يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيئته فيجتري عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم ؛ فن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من ألوف عاداتهم ولما حصت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراً رأستها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده وبما امتازت به قريش حلف الفضول وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العvisية تثيرها

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطبقون أرى يحكموا حكماً ملوكياً يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يمد لها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال

وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فتن رجعت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء ! تقيم بإقامته وتظعن بظمنه ، وإذا دعا الحرب لا تتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يمدّها لما يطرأ من النوائب وما يتحمّله من الحملات فكان له المربع والصني والنشيط والفضول : فالمربع ربع الغنيمة والصني ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيط ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول ما فضل من السقمة مما لا نصح قسمته على هدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيدان

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيط والفضول
وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة
عرف البيت بالشرف والمجد ، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه
حنيفة بن بدر ، وبيت تميم في بني دارم ومركزه حاجب بن زرارة ، وبيت ربيعة
في آل ذي الجذنين ، ومركزه قيس بن مسعود الشيداني : وكان لهؤلاء الرؤساء من
السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم إلا أنهم كانوا لا يتتوجرون حتى كان بعضهم
إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لأنسأله فيم غضب ! وكان في بعض
الآحيان يعظم قدر الرئيس ويشدّ ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة
ويجعلها خاضعة تؤدّي له خراجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس —
من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فإبهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بمعاظ
وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

ومن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى
التميمي — سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا
ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة
شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع
عن العشيرة ليشتهر ذلك على السنة الشعراء منهم فيهنفون بأسمائهم مادحين : والشعر
كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو !!

المحاضرة الخامسة

الحال الأدبية

الأخلاق - اللغة

الأخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجلل والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشى واللعب النظامى

عموم الأخلاق

لا يحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعل فاعله منهم من غير أن يحاذر تكبراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عدت من مذام الأمم - التي بها تستحق السقوط والخذلان - أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى فى الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه فى الجريمة . فإن كان الشر معروفاً عن فرد أو جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الماعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها ، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الأمة : كذلك لا يحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم إلا مستسراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير فى بيان الأخلاق عند العرب

من الأخلاق التي كانت للعربى سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج فى هيج ، إلا إلى كلمة صغيرة أو فولة حميرة يتخيل معها أن قدم شرفه فتجده زار كالأسد خرج من مكمنه لا يترث حتى يستطلع جلية الأمر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق أكثر ما تراه فى قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجوناً ولا أحكاماً قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون

النصر المؤزر من أقوامهم وحافاتهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتنبأ لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير في طريق الحروب بقابل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قاب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير . يافلان . واذلاه ، وانصيراه ، شرف الآباء . وما شاكل ذلك ، ولم يكن هدم شيء من بلاد الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يمين شرفه حسبا يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لأن النفس متى تنبأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكف بدون الموت لمن ترصد الانتقام منه

ومن هنا كان خاق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا في ساداتهم وذوى الأسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون

ومن أخلاقهم التعصب ومعه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية ، وقد سمي القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن فيها نتيجة من نتائج الجهل وعدم الثبوت ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومثمن على غيره . كان الواحد منهم يأتيه الضيف - في شدة البرد والجوع - وليس عنده من المال إلا ما قته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها ويذبجها اضيفه يخشون مذقات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحطان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيرا ثم طلب من امرأته حبلا يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه . ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلا فقال لها على الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فقال :

لا تعذبنى في العطاء ويسرى لكل بعير - جاء طالبه - حبلا

فإني لا أتبكي على أقالها إذا شبع من روض أو طانها بقلها

فلم أر مثل الإبل مالا لمتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته .

حلفت يمينا يا ابن قحطان بالذي تكفل بالأرزاق في السهل والجبل

تزال جبال محصنات أعدها لها ما شئ منها على خفه جل
فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالبا فعندى لها خطم وقد زاحت العلل
ويرى المطلع على أبواب الحماسة والثناء والادب والاضياف - من ديوان الحماسة
الذى جمعه حبيب أوس الشهير بأبي تمام - ما يثاج الصدر

ومن أخلاقتهم التى كانوا يتمدحون بها ويعيرون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان
العهد عندهم دينا يتمسكون به ويستهيون فى سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب
ديارهم . انظروا إلى ما فعله هانيء بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر
وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهى الدولة الفارسية فأغضب
ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك ، ثم
انظروا إلى ما فعله السمومل بن عاديا وهوعربى المقام والمولد حينما خيره الحارث
الغساني بين قتل ولده وتسايم أدرع امرئ القيس بن حجر الكندي التى كان أودعها
عنده ففضل قتل ولده ، وفى ذلك يقول الأديشى مخاطبا شرح بن عمرو الكلبي :

كن كالسمومل إذ طاف الهمام به فى جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلى الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطى خسف فقال له اعرضهما هكذا اسمعهما حار
فقال غدر وشكل أنت بينهما فاختر . وما فيهما حظ لاختار
فشك غير طويل ، ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جارى
وسوف بعقبنيه إن ظفرت به - رب كريم ويض ذات أطهار
فاختار أذراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهد فيها يختار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى لذلك بما
تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب ،
والقوس فى الحقيقة لا يمنع رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيعته الغدر ، وإنما
خاف السبة على بنيه من بعده - إذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق فى الأمانة
العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء نارا حامية
وقلبا يفلح بعدها أو يرفع له رأسا بين العرب
وخلق الوفاء فى الحقيقة أعظم بمثل الأمانة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقى فإن

خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لأمحيس عنهما
ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغفلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم
مقدما على الأبناء والإخوان . ومن ذلك أن رجلا من السواقط من بني أبي بكر بن
كلاب قدم إليهما ومعه أخ له فكذب له عمير بن سلى لأنه له جار فحدث أن كان
بين قرين بن سلى وبين أخى الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين ، وكان عمير غائبا
فأتى الكلابي قبر سلى أبي عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي أن
يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق إلى
الكلابي جميع ماله ، فأبى الكلابي أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع
الوادي فربطه إلى نخلة وقال للكلابي : أما إذا بئت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادي
وارتحل عن جوارى فلا خير لك فيه فقتله الكلابي . وفي ذلك يقول عمير
قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره
وقالت أم عمير

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل أخاء فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن ننسكهم فيه فإنهم كانوا يخطرون حلفاءهم
بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف بعد من أفراد القبيلة
التي دخل في حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قرين في الجاهلية يتزوجون بناتهم
مع أن قريناً كانوا يضمنون بناتهم عن أى قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب
لهن كفاً إلا من دخل في حلفهم ومن أخلاقهم التي كانت بحجاب الكرم والوفاء
الشجاعة وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الإفدام على المكروه ، وباب الحماسة
في أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر في جميع الأفراد أما الكرم
فإنه لا يظهر أثره بجلالة إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء
والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة اليأس وقوة
القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم
من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن
نقول إنها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم في أبواب الأدب يجد

من وصاياهم الجليلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويحمله يحكم أن هذه الآفة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش — لم تخل من حكام أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم : ولتلكم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسباً قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمتعون بها الميسر ! ؛ وكانوا يرون أنه سبيل من سبيل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار إلى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقдах وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيع والسفيح والوعد ، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الأول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي إلى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرة واستعداده ثم يدفعون هذه القдах إلى رجل أمين يقال له أمير المقامرين فتدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف على كف الأمين قطعة من جلد ائلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قدحا : ويفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القдах على تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القдах فإن خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقيين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القдах عليه لأن ما يستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القдах عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القдах عليها لأن منها النافس ، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج المجلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان : ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل

من ربح في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهي لمن هذا الرقيب والمسبل والمعلل . وكذلك ثمن الثالثة والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمة الدين الإسلامي وهذه المفسدة هي أنه يقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شيء ومن عاداتهم التي يتمدحون بها — شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها في الشعر العربي باباً من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ما قيل في شربها من جهة الأسلوب اللغوي قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مقدم
فاذا سكرت فإنتى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

والشرب — في وقت عنترة هذا — كان يسمى عدهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحاً ويسمى الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم ، لأن المفعة في كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألوك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين لغة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم مذ حارب قحطان رأس قبائل اليمن ويسمّون في التاريخ بالعرب العاربة لإصالتهم في العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرم الثانية التي سارت إلى مكة واحتلتها قبل أن يردّها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلاً هبرانياً يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه

هاجر امرأة مصرية . أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرم الذين عاشهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لا يمكنهما أن ينسيا بالمرّة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة وإذا احتاجا إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرم يفزعان إلى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية ليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الأصلية والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بنى إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبيرهما لا يختلفان وإنما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس والمتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرى غرابية سببها عدم الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلافة لا يجد ما فيها يرادفها من الألفاظ الحجازية معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعينهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على ما يقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدلت عليها بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول - تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحياناً وربما اختلفت مواضعهم فيجئهم للدعى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف وأكثر ما نجده في أسماء الأشياء التي هي عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرح والجمال والكلب والهر وما شاكل ذلك

الثاني - التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الأول على الثاني ومع تطاؤل الزمن ينسى قول الشئيين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت في أصل اللغة وضعا

ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ماتخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من غنى باغتهم ، وكانوا دائماً يكونون عن المعاني التي لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتاً ما لمعان خسيصة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة .

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة ما يلزمه حسماً يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانيين بالكنايات

الطريق الثالث - طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صفه وتمثليه وكان لهم في التعريب أشأوا الواسع ، لأن العرب اشتغلوا بالاجارات والأسفار وساكروا الفرس والروم والحش . وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها مسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد أن يتلاعوا به قليلاً حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الإسلام بزمان ليس بكثير .

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربي فإن هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتلقمها الاسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التي إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى عشرين منه ومجنة بمز الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانية من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينفشون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعراء ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بهض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقار بها بما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كأمري القيس الذي كان أبوه ملكاً في نجد على بني أسد وشعراء الأوس والخزرج الذي كانوا بالمدينة

وطي. وكلب المقيمين في شمالي الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعرباً لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم الأمم
الآخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى
بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدى بن زيد العبادي الحيري وأمية بن
أبي الصلت الثقفي لأنه كان ذا أسفار يخاطب العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما
كلمات في اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر
أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير
عما يكسره الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم
وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم
في حاجة إليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا
في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والاسماع وهذا
ما نحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الإسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثير
الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون في مواقفهم المحدودة لهم بما أوتوه
من الفصاحة واللسن ، وتعد القليلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعراً
ينافح عنها في المجامع وربما أولمت الولاثم فرحاً بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش
خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية
بمنازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد أن يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وثقن شعراء العرب في جميل
المعاني فليطالع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعه أبو علي
الغالي في أماليه ، وما جمعه أبو العباس المبرد في كماله ، وما جمعه صاحب جهرة أشعار
العرب فإن ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس
يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل
جداً في جانب الذهب الوفير

المحاضرة السادسة

الكتابة - العلوم - الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشئ الذائع يتناوله جميع الافراد وإنما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاثة ليست بالشئ المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت انرى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نذكر عن الامة العربية بأنها أمة أمية أى لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير فى اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت تمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد فى المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلاً أو بعضاً وربما فاتهم الشئ منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه فى بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات والكون الشمر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقى من نثرهم وخطهم فى المحافل والمجامع

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ يدهم إلى طريق ترقيتها كما يأتى بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جبا لجبا لأن الإنسان متى احتاج فنقتله الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يستد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البداءة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مختصا بما هم في حاجة إليه وكانت الحاجة في حواضر العرب أكثر منها في باديتهم ولذلك كان عدم من العلم والصناعة أكثر عما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج إليه ويسمى من السماء ثم في جملة الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ، ثم أداة حربه وقلبا يحتاج إلى أكثر من ذلك

فأما حاجته إلى المطر فقد اكتسبته ملاحظته لظواهر الجو وتغيراته وما تنبئ عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإنذار بالجذب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريدية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالألوان^(١)

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثني عشر قسما وسماوا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسماوا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى في الشمال هي الحمل والنور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة التي في الجنوب هي الميزان والعقرب والفوس والجدى والدلو والحوت

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالا أخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هي المنازل - السرطان والبطين - النجم وهو الثريا - الدبران - الحقعة - الهنعة - الذراع - البثرة - الطرف - الجهة - الخراتان - الصرفة - العواء - السماء - الغفر - الزباني - الاكليل - القلب - الشولة - النعائم - البلدة - سعد الذابح سعد بلع - سعد السعود - سعد الاخبية - فرع الدلو المقدم - فرع الدلو المؤخر - الحوت

بعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبدئ القمر فيعيد الانقلاب في هذه المنازل كما المرة

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب مارواه صاحب الاغانى قال خرج
إعرانى مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرمي غنم لها فقال الشيخ إني أجد ريح النسيم
قد دنا فارفعى رأسك فانظري . فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها
بعد ساعة إني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال
دم تجر جلالها قال ارمي واحذرى ثم قال لها بعد ساعة إني لأجد ريح النسيم قد
دنا فانظري فقالت أراها كأنها بطن حمار أحمر فقال ارمي واحذرى ثم مكث ساعة
وقال إني لأجد ريح النسيم فأتري ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فوق الأرض مديه • يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنها بين أعلاه وأسفله • ريط منشرة أو ضوء مصباح
فمن يجعله كمن بجوته • والمستكن كمن يمشى بقرواح

قال ابجى لأبالك : فما انقضى كلامه حتى دطلت السماء عليهما
وحاجتهم إلى إلهام أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداوتها
ولإبعاد سايحها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفه ذلك حظ وافر كما إنهم
استفادوا لحظ حياتهم شيئاً من الطب الإنسانى ومعرفة أمراض الإنسان التى تنابه
في الصحراء من أنواع الحمى التى لا بد منها لمزيتيم حول مافع المساء متعرضاً لبرد
الليل وحارة القيط وسموما بأسماء شتى على حسب أنواعها
وكان للكمى بالناس وفي أوديتهم نصب السق ويكاد يكون الدوام الوحيد

الاولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها
التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفى كل ثلاثة عشر
يوماً نوء جديد . وقال بعض علماءهم إنه لا يسمى نوءاً إلا إذا كان معه مطر فان لم
يكن مطر فلانوء وإذا نسوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه
إلى السائط وكانت لهم أسجاس محبوطة يضبطون بها ما يتبع النوء من الحوادث الجوية
فإن لم تكن الحادثة باب لـ ر لـ سـ تـ ثـ جـ دـ هـ زـ حـ طـ يـ كـ لـ مـ نـ هــ وـ فى الحالىن . وإذا
طالت الدوام وجثم أشياء طاب أملاء ومما مثل ذلك ما لا حاجة بنا إلى الإضافة فيه

لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموم الاطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئا من الطب من حواضر البلاد الاخر وحاجتهم الى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اقتص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة إن قالت إني صناع اليد فإنما تعنى بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسيج في حواضرهم وأكثر ما يكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم الى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الاشجار اللاتق أن تصنع الرماح منها وغير اللاتق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزجاج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق والآلة وكانوا يسمون ناحية الآلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهنددة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب لإهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولذلك لم يكن في البادية حساباً منتظماً بأرقام وقواعد تعلم وإنما كان حساباً أرقامه الأيدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد

ومن علومهم الجبرية علم القيادة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها - كما في الآثار والإنسان كبنى مدج . وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب لا يكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى ما في منها بين أعراب السودان لا يقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في إظهار الجنايات وفعايلها ولما يخطئون . قال جاكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥ :

« وإمارة الفاتنين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالا من ذلك - في إحدى الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في مروي ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالي ودفنوا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة

وهناك عرضوا جميع السّواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أنّ الأثر أثرهما ثم عرضوا الخير أيضاً واتضح أنّ حمار المفتش هو الذى ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أنّ باقى السكر دفن فى مكان قريب من الاصطبل ، ولما جرى بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتهم وقالوا أنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم وكان لهم فى النوع الثانى ما لا يقل عن الأول يجشرون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائب فيحكم حكماً فصلاً قائلًا هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً وينفى هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ولا يهمل إن كما قد اتفقا فى اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضىه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم فى الأنساب إذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قراءد صحيحة تنفع بها فى حياتها ونباهة الأمة أس من أساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين : أما الأول فهو شعور الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب

الثانى شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظام الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التى بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شئ. لأنه يحبه حباً جماً فزى العابد الخاضع بعمل هذا وسيلة فى عبادته يرجو بها رضا من خالق العالم الأكبر فإن كان حياً فهو الوسيلة وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جدات له صورة تمثله وقد تكرر من حجر أو صخر

أو ماشا كل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجراد نافع أو ضار لأن القوة التي أعطاها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذي على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقوة تصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعيا في الإنسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوى المدبرة والأشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الإنسان متدين بالطبع حتى أنك لتراه إذا ألد في دينه وازداده ينتقل منه حالا إلى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق المرصلة إلى إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان - هو إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه صلاحة الناس ويدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأول إسحق ومنه كان جميع أنبياء بني إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثرا موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذي منه كان جلة الملوك من إسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة إلى الناصرة وهي أول قرية دلم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصري والفرع الثاني كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضا مجددا لشريعة إبراهيم كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الإسلام فكانت اليهودية في بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذونواس أتباعا لدعوة حبرين يقال أنهما أتيا من تبع الحميري من يثرب وكانت أيضا يثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المنتصرة من الروم المتدينين

بهذا الدين إلا أن المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقى فى نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائى وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودى لأن اليهودى يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أن إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعى إلى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التى كارسادنها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظام وذوى الأثر الصالح فيهم ؛ أو تمثيل القوى التى يألّفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها وما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي فى وصف ود وهو صنم عذرة نقلا عن شاهده من رجال عذرة ؛ قال كان تماثيل رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر عليه حلطان مئزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تسكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل - فهذا يشبه أن يكون تماثيل قوة الحرب التى يعظمها العرب - وكان لهنذيل صنم اسمه سواع فى رهاط من أرض يثرب وكان يعبد من يليه من مضر وله سدنة من بنى لحيان - وكان لمزحج وأهل جرش يغوث - واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبد همدان ومن والاهما من اليمن - واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معديكرب تعبد حميرو من والاهما حتى هودهم ذو نوّاس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رثام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر أن هذه التماثيل الخسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لأن نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد في الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وذا ولا سواها ولا يغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر إنها لم تكن تمثالا وإنما كانت أثرا من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بني سائب

ومنها ذوالخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهية التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خشعهم ودوس وبجيلة وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد ميمى أدركته قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب وكان أول من نصبه خزيم بن مدركة كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لالا اعتقاد أنها آلهة وإنما لاقربهم إلى الله سبحانه كما قال في الكتاب (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وكانوا إذا سئلوا عن خالق العالم وقدر له رزقه يقولون إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التي يدعوها النصب والانصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفردا فقال في كلمته التي يمدح بها رسول الله ﷺ

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافية والله ربك فاعبد

ولهم طرق في توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبني إسرائيل ما يشبه هذه الطرق وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فالبهيرة الناقة نشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزؤ برها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم والسائبة التي يتذر الرجل أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن إصاب أمرا يطلبه فإذا كان ذلك أسباب جملا من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلته الاناث منها ولنفسه
الذكور ، فتلدها أمها ومعهذا ذكر في بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسيب أخوها
معهها فلا ينتفع به

والحامى الفحل إذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حتى يظهره فلم يركب
ظهره ، ولم يجز ويره وخلي في إبله بضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك - هذا تفسير
ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب
متفقة في عادة تلك القرايين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر
وقد ورد ذكر هذه القرايين الأربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ما جعل
الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزم القدح الذي لاريش عليه ،
والازلام كانت اقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل ، وقد
زمت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدة البيت فإذا أراد رجل سفراً
أو نكاحاً أتى السادن فقال أخرج لي زماً فيخرجه وينظر اليه فإذا خرج قدح الأمر
مضى على ما هزم عليه ، وإن خرج قدح النهى قعد عما أراده وربما كان مع الرجل
زلمان وضعهما في قرابة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها
أن اطالب الإنسان ما قسم له من جهتها وكان في الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسماعيل
وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويحلوها
فوق اجلالهم لاى معبود آخر لهم يرون انها أثرا بهم لإسماعيل وكانوا يحجونها ويرون
لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم
فكان الكعبة هي بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمرهم حفاظ الدين وهذا
مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها بمن يلى أمراً من الأمور الدينية بمكة

وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم
فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وقطان مكة وساكنوها فليس
لأحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا
شيئاً من الحل كاتعظمون الحرم فإنكم أنفعتم ذلك استخفت العرب بحرمتم وقالوا

قد ظلموا من الحل مثل ما ظلموا من الحرم ، فتركوا الوقوف على عرقة والافاضة
منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون اسائر العرب
ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل
والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك
وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحس ثم قالوا لا ينبغي للحمس بأن تقطوا الاقط ولا
يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا - ان استظلوا - إلا في
بيوت من الادم ما كانوا حرما ثم قالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام
جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجا ؛ أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا
قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ،
فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحس فطاف في ثيابه التي
جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره
أبدأ : وكانت العرب تسمى تلك الثياب التي لحملوا على ذلك العرب فدانته به
وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الأول (ثم أفيضوا من
حيث أفاض الناس) وقال عن الثاني (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال
(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

المحاضرة السابعة

النسيء - الموحدون من العرب - المولد النبوي - الحال قبل البقوة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيء :
والنسيء كلمة معناها الأجل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت ورجل ناسيء
من قوم نساء قال في لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم
رجل من كنانة فيقول أنا الذى لأعاب ولا أعاب ولا يرد لى قضاء فيقولون صدقت
أنسئاً شهراً . أى أخرعنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون
أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من القارة فيعمل لهم
المحرم ، فذلك الإنساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

ألسنا الناسئين على معد ؟ شهرور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو علي القالى فى أماليه فسمى الناسيء نعيم بن ثعلبة وقال فى آخر عبارة فإذا
كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفرأ - وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معد شهرورهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام فى سيرته : والنساء الذين كانوا ينسئون الشهرور على العرب فى الجاهلية
فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك
الشهر فقيه أنزل الله تعالى (إنما السىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلون
عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) ومعنى ليواطئوا
ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهرور على العرب - فأحلت منها ما أحل وحرمت منها
ما حرم - القليس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان
آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر
الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل
المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا
الصدر قام فيهم فقال اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر
للعام المقبل فقال فى ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن

كنانة يفخر بالنساء على العرب

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس أن لهم كراماً فأى الناس فانونا بوتر
وأى الناس لم نعلك لجاما ! ألسنا الناسئين على معد ! شهر الحلال نجعلها حراما
على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخالص لما كان يجرى من النسب قبل الإسلام إلا أن
بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفى سنة ٢٧٢ فسر والنسب عند العرب
بغير ذلك حيث فسروه بالكسب الذى استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فإنهم يضيفون
على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتسكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم
يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية لأنها بالكسب أو هذا النسب تكون مطردة مع
دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربى إلا فى فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير
كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لا ارتباط لها بدورات القمر . وقد تابعه
على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفى صدرهم محمد بن أحمد البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠
ومنهم المسعودى الذى قال فى مروج الذهب : وقد كانت العرب فى الجاهلية تكسب
فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسب وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما
النسب زيادة فى الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخى العرب اختلاف
بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسب عند العرب بما فسره
به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار التفسير الثانى : وقد رفع
اللثام عن وجه الحقيقة فى ذلك العالم الفلكى محمد باشا الشهير بفلكى فى رسالة له
سماها نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها إن العرب قبل الإسلام
لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسب عندهم إلا بالتفسير
الأول وأظهر إن الخطأ فى ذلك واقع فيه لأول مرة أبو معشر^(١) وتبعه البيرونى^(٢)
ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تنقى مجالاً للريب فليراجعها
من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت
النسب فى كتابي نور اليقين بما فسره به

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر الباهلي توفى سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ریحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمي المتوفى سنة ٤٣٠

ولما تبين لى وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة فى الكفر
يضل به الذين كفروا يحملونه عاما ويحرمونه عاما ايواطئوا عدة ما حرم الله - والنسيء
بالتفسير الاول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت
أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعيت حاجتهم التى هى غارات
وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام
بالأشهر المعينة فهم يحملون أحد الأشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد
المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسيء بالتفسير الآخر
فلا يعدو أن يكون نظاماً ثابتاً انتهجوه فى تقويمهم لبقضاء الأشهر العربية متفقة مع
دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الإحلال عاما والتحريم عاما لمواطأة عدة ما حرم
الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالا لتلاعب النساء بدينهم

ومن الغريب أن المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تكبس قال
فى تفسير الريعين : إنما سمي بذلك لارتباع الداس والدواب فيهما ثم قال فإن قيل
قد توجد الدواب ترتع فى غير هذا الوقت قيل قد يتكى أن يكون هذا الإسم لزمها
فى ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون
- كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت
تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال
الدين من أهل مكة من كسابة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم إلا أنه كانت هناك أفراد منهم
لم تكن لك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طريقتهم التى هم عليها
لا توصلهم إلى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لا ضرف فيها ولا تنفع
ومن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم .
فالقرشيون ورقبة بن نوفل الأسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل
العدوى من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الأسدى من أسد بن عبد العزى ،
والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد بن خزيمه وأمه أمية بنت عبد المطلب
اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا : تعلن والله ما قومكم على شئ لقد
أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يصر ولا ينفع يا قوم التمسون

لا أنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء ؛ فتفرقوا في البلدان يلتمسوا الخيفية دين إبراهيم فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبايح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه بعباد ما هم عليه ركان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ثم يقول اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لأعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده وأما عثمان بن الحوثر فقد قدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزله عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانيا

وكانت لانزال كهان العرب وذو الأسجاع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد أن أخبارهم هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عايتها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤوا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبيا يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهمجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوؤهم من العرب كما قال يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم إذا اشتبكوا في حرب وقد روى ذلك عن بعض الأنصار من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الإسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء مامن التغير في عبادة الاوثان ، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جمعت في الأنفس شيئا من الاستعداد لقبول الإصلاح الإسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لم

كان عبدالمطلب بن هاشم كبير قريش وسيدعا وله أولاد أشرف عظماء ، منهم

أبو طالب وعبد الله وحمة وعباس وأبولهب وعبد المطلب ذوالسن من بيت عبد مناف
الذى هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب وهى من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش
فبنى بها عبد الله فى مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام فلما وصل المدينة - وبها
أخواله من بنى النجار - أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما
كان بنو النجار أخواله لأن منهم أم أبيه عبد المطلب

وفى صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل
ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان . ويوافق العشرين من شهر إبريل
سنة ٥٧١ حسباً حقه العالم الفلكى محمود باشا - ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده
فجاء مستبشراً واختار المولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب ولم يمر
على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد
أشرافهم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمى الشاعر المشهور ويستتبع المؤرخون
أن اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بهذا المولود من
المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبي منتظر من
العرب وختته يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لاولادهم فى البادية
لأمرين (الأول) لهم يتبعون فى البوادي عن أمراض المواضر التى كثيراً ما تصيب
الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشد أعصابهم لما فى دواء البادية من الصفاء
والابتعاد عن عفونات المدن (الثانى) أنهم يتقنون اللسان العربى فى مهدهم عن البدو وهم
أجهر صوتاً وألسن عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبد الله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة
واسمها حليلة بنت أبي دؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المسكنى بأبي كبشة
من قومها فأقام - مترضعاً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردتته إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة
كانت لآمنة عادة منذ توفى زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره
بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لملك الزيارة وبينما

هي راجعة إذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالآبواء بين مكة والمدينة فعاد عبدالمطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً . قال ابن هشام كان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه لإجلاله فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه أو يخرجوه عنه فيقول عبدالمطلب - إذ رأى ذلك منهم دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفي بمكة جده عبدالمطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبدالله أولاد عبدالمطلب كانت أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو والخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - أو ثلاثة عشرة - خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصلا بصرى وهي معدودة من الشام وقصة حوران وكانت في ذلك الوقت قصة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ما نقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع أبي طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفاً عليه من عدو يتربصده وأخبره أن له شأنًا فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً وكان رئيس بني عبدالمطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان ينبل على عمومته أي يجهز لهم النبل الرمي . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبدالمزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجذوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلته وتم ذلك الحلف في دار عبدالله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبدالله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بنى أسد ابن عبد العزى وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضارهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا في قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين فعرضت إليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلاما يسير فذهبا حتى أتيا الشام وباعا واباعا وربحما ثم عاد إلى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهرى أن هذه الرحلة التي ذهبت فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشة باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضى وكانت سنهما أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمس وعشرين وهى أم أولاده جميعا أما عبد إبراهيم الذى ولد له بالمدينة فإنه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسابا وثروة وعملا ولها في تاريخ الإسلام أجل ذكر وأصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضیمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شيء ولم يزلوا في الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذى تولى البناء روى اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة أذرع وصعدوا بها في الجو حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلموا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءاً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ٥٠ ، ١٠ م من أرضية

المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابه على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ م ، متوسط عرضها ٣٠ م ، وتسمى بالشاذروان وهى من أصل البيت ولكن قرىشاتر كتبها واستظهر محمد لبيب بك البتانوفى فيما كتبه عن الكعبة فى رحلته الحجازية التى اقطننا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم تحدث 'ما فى عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف وللکعبة أربعة أركان : الشمالى واسمه الركن العراقى والغربى واسمه الشامى والجنوبى واسمه اليمنى والشرقى واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهى أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ٣٠ م ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت ويعدان عنها ٣٦ ، ٢ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمك ١٠٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ٤٤ ، ١ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان فى الحجر

السيرة الأدبية قبل النوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبدالله كان فى قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأمانتهم ، وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته مافرأمن هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلاً وكان عمله حين شب - الجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها فى الربح وكان يشارك غيرها أحياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين فى موضع البحث وهى هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه

فقال جمهورهم إنه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة قما من الشرائع الماضية واستدوا بأنه لو كان مكلفاً بشريعة افضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة لياخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لوفرت الدراعى على نقله ولم ينقش شىء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الأئمة كالغزالي وشيخه إمام الحرمين والآمدی لأنهم لم يظفروا بما يؤاوم للحكم في مثل تلك المسألة

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ما هي تلك الشريعة اختلفوا في تعيينها فن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدوهم وإنما هي مجرد أفكار

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهبا مبهما وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموما وخصوصا ولم يترك الناس سدى قط يلزم التعبد كل من تأمل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقل إن هذا الدليل يوجب التعبد في غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاق والذي نراه أن التفصيل في مثل هذه المسألة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لأن مثل هذا الرأي يلزمه أن الإنسان مطلوب منه أن يتطابق جميع الشرائع الماضية التي سبقت ويعبد الله بما يثبت أنه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول أنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته راض الاوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويأثم مكارم الاخلاق التي في مقدماتها الصدق والامانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكريا في خالق الكون الاعظم وكان يتعبد فيه عبداً لمطلب وقال المؤرخون إنه أقول من تعبد فيه ولم يعلم عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقت ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة في الكتاب (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) وقال في سورة الضحى عما آتته به عليه (ووجدك ضالا فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة

المحاضرة الثامنة

البعثة - الوحي - الدعوة السرية - الجهر بالدعوة
ما كان من قريش - هجرة الحبشة

البعثة :

الذي يختارهم الله لإصلاح الأمم ياتي إليهم ما يريد أن يبلغوه عنه بالوحي والوحي - في لغة العرب - إعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبئ عليها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن ، وفي لسان العرب لغیر إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلين كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) وقال (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخزي إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبرا عن يوسف في صغره (وأوحينا إليه لتنبئكم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لا يعدو معنى الإلهام الذي ربما شعر به كثير من الناس

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإن العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الإنسان هو أن يحوم حوله مستعينا بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني هذا الإعلام له مراتب الأولى : أن يخاطب في الزوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيرا في التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبير التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب إلى إبراهيم في الرؤيا قائلا الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطبا لابنه الذبيح (يا بني إني أرى في المنام أن أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الأنبياء حق ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا المرتبة الثانية : أن ياتي ما يراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك

هو المسمى بالإلهام والإلقاء في الروح ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكا على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه في النفس فإنه يسميها شيطانا وفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك) المرتبة الثالثة : أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملك للأنبياء في التوراة كثيرا المرتبة : الرابعة أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العظيمة المتقدمة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لم يأتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أنما نودي يا موسى إني أنبارك فاخلع ذمليك إناك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)

هذه هي المراتب التي عرف أن الوحي يبلغ قلوب الأنبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز الممانى في القاب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الإعلام شدائد يحصل شيئا من جنسها لمن حتى فكروهم في أمر أو حادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصعب من جراء ذلك عرقا ولستنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض ، إنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس مالا يحس به وليس في مكنتها أن تدرك حقيقة : إذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يحمل الإنسان على نحو ما رصفنا لكم فكيف بالفناء في الإله أنا لا أستغرب ما قرأته في بعض الكتب أن صوفيا لسم يعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأنى أعلم أن الجندي يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضى لشأنه حتى إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالآلم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عن الوحي من غيبهم عن محضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ! فقال أحيانا يأتينى مثل

صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وهيت ماقال وأحيانا يتمثل لى رجلا فأهى مايقول

وعما روى أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحى اليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

وقدعقد العلامة ابن خلدون فصلا تكلم فيه على الوحى والرؤى ولكن قلما يظفر الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخارى من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذ جاءه الوحى وذلك فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قرية وستة أشهر و ٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ . ولامعنى للاختلاف فى تحديد اليوم بالتقويم العربى بعد أن أشار اليه الكتاب إشارة ظاهرة لاتخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جله ^(١) عاما لأقول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة فى التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية بين أنه لا يصح أن يراد منها غير هذا لأن الذى فزق الله به بين الحق والباطل إنما هو اختيار الله محمداً لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى إلى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ما وقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكى من الخطأ حيث جعل الرسالة فى ربيع الأول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذى أوقعه فى الخطأ مافى . بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين

القرآن هي التي قال فيها الكتاب (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمر آمن عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بفارحراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكراً لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعدته عن كثير من التعاليم التي تأتي إلى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما أخبر به الرسول عن نفسه قال لجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال : قلت ماذا أقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم : الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) قال فقرأتها ثم انتهى فأنصرف عني وهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى نخذا مصغياً إليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسل في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت لجمعت ^(١) عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة

قد تنصرو قرأ الكتب وسمع أهل النوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بآياته لئن هذه الآلة فقر لي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما فضى عليه السلام جوارحه وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الآلة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه ولتؤذنه ولتخرجه ولتقاتله ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرت الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التي لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلًا وشدة أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تذكر الدعوة - إلى هذا الدين - في بدء أمرها - سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم - ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد - فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحرز الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد وزوجها ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلابي ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلي بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله ﷺ تخفيفاً عن أبي طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ؛ وكان أبو بكر محبوباً في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نفعاً ، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموي والزيير بن العوام الأسدي وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمي ؛

ثم تلام أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبوسيلة هب الله بن هب الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان وهبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلي وسعيد بن زيد العدوي وامراته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش ، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة - لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولاكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي. استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجر ذلك إلى تضليل آباءهم فإنهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وذلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ماعسى أن يهجم به أعداؤه من الفتك به حماية لدينهم وشرف آباءهم ، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب أصول العربية - أن يجير ! فإن فعل كان التعدي على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق . فحذب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لأشأنه في الدعوة والجهار بما ينزل عليه من الوحي

لما رأت قريش أنه صار في منعة بجوار أبي طالب مشى رجال من أشراف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آباءهم أو يخلى بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلاً فانصرفوا عنه . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تقدم شيئاً تدمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائلين إنهم لا يصرون على هذا الحال !! وخبروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم

يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخى إن قوهك جاؤونى وقالوا
لى كذا وكذا فأبى على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيع فظن الرسول أن
عمه خاذله ومسله وأنه ضمه عن نصرته والقيام معه فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس
فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك دونه - ما تركته
ثم استعبروبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب
قل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة ابن الوليد وقالوا
له إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله نخذه فلك عقلة ونصره واتخذ ولدأ فهو لك
وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه
أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب لبئس ما تسوموننى أتعطونى
ابنكم أغذوه لكم وأعطىكم ابني تقتلونه ؟ ! ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام
فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة
دون أخويهما عبد شمس ونوفل - ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه
فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربى إلا ما كان من أخيه أبى لخب فإنه
فارقهم وكان مع قريش ولا أدرى أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت
هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال ؟ ولا أظن أن كونه من أم أخرى غير
أم أبى طالب يدعو إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير فى قلوب
العرب بين الأخوة لأن العصبية الأخ كانت عندهم فوق كل شيء ولا يبعد عندى
أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد أعداء
رسول الله حتى أنها كانت تذيع عنه الأكاذيب فى مجامع النساء فتشعل بذلك
الأكاذيب نار العداوة فى قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل
الحطب لأنه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت فى السورة الحادية عشرة بعد
المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش أنه
لا بد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر فى أنفس العرب
فاجتمعوا يتداولون فى تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فإن ذلك

يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم نقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذوالسن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا سحبه فقال آخر نقول مجنون : فقال الوليد ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو بخفه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر لقد رأينا السحار وسحرم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمتز بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ولما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قعيدته المشهورة التي تعود فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بني عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركة لشيء أبداً وفيها يقول :

كذبتهم - وبيت الله - نترك مكة ونظمن إلا أمركم في بلابل
كذبتهم - وبيت الله - نبزى محمداً ولما نطاعن دونه وتناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعني بقول إلا باطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة ^(١) فن

(١) يقال قنت الفضة والذهب إذا ذبتها بالنار لتمييز الرديء من الجيد واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار - والمراد بها في لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

جهة الرسول أغروا به سفاهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحا فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفى منه مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لا يبالى بما يصنع سفاوهم معه

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه — وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب — قال لهم لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه فقتلوا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة في الإسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشي مشواهم وأعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شرا ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون في منزلهم الجديد ١١ فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشي ويطلبوا منه ردّهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارفته وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة واتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قال له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردّهم عليهم فهم أهلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات ورواية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشي : فلما أديا الرسالة قال النجاشي لهما إذا لا أسلهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادى واختاروني على سوى — حتى أدعوم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ؟ فإن كان كما يقولان أسلنتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسن جوارهم

ما جاوروني ، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاءوا فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل فكلمه جعفر بن أبي طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترتناك هلي من سواك ورجبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدرأ من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لأسلمهم إليكما ولا يكادون ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل ! فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالمونا قال والله لا أخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما فسلمهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها هودأ ثم قال والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود ، فأغضب هذا القول منه بطارقه ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم - ومعنى هذه الكلمة بالحبشة آمنون ، ورد هلي الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيدكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبيل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمتقمين بمن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ما روته أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه قالت وكنا نأق من البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال إنه الانطلاق

يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً قالت فقال سبحانه الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا قالت فجاء عامر (تعي زوجها) فقات له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آتياً ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت في إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام



المحاضرة التاسعة

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب - هجرة الطائف - العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عنه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لا ذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا إلى حيلة أخرى وهي مقاطعة بني هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك ، فأنحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فظاھرم

أقام أبو طالب في الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعهم ليلاً ونهاراً سرّاً وإعلناً منادياً بأمر الله لا يتقي فيه أحداً من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بني هاشم وبني المطلب وأعظمهم في ذلك أثراً كان هشام بن عمرو ، ومن بني عامر بن لؤي وكان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فمضى إلى زهير بن أبي أمية من بني مخزوم ، وقال له يازهير : أفد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء

وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم :
أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دهورته إلى مثل مادعاك
إليه منهم ما أجابك إليه أبداً ١١١ قال ويحك يا هشام إنما أنا رجل واحد والله لو كان
معى آخر لقممت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟
قال أنا قال زهير ابنا رجلا ثالثا فذهب إلى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل ابن
عبد مناف فقال له مطعم أقدر رضىت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد
على ذلك موافق لقريش فيه أما والله إنى أمكتهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا
قال ويحك ماذا أصنع فإنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا قال من هو ،
قال أنا قال ابنا ثالثا قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى أمية قال ابنا رابعا
فذهب إلى أبى البختري بن هشام فقال له نحوا عما قال لمطعم وأهله بما اتفقوا عليه
فقال ابنا خامسا فذهب إلى زمعة بن الأسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه
وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى
إليه من أحد . قال نعم : وسمى له القوم فأتعدوا حطام الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا
هناك وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير أنا أبدؤكم فلما أصبحوا
غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على
الناس فقال يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكن
لا يباعون ولا يبتاع منهم ١١٢ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة
فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق فقال زمعة أنت أكذب ما رضىنا كتابتها
حيث كتبت ، قال أبو البختري صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال
المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها
وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشور فيه
بغير هذا المكان وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ،
ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب
الرسول بمصيبة عظيمة وهى وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين

مقاربين في شهر شوال ، وكانت خديجة له وزير صدق على الإسلام يشكو اليها وكان
عمه عضدا وحرزا في أمره ومنعة وناصرا على قومه وكان وهما قبل الهجرة بثلاث
سنين قتالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطامع فيه في حياة أبي طالب حتى
اعترضه سفيه من سفهاء قريش فثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لا بد له من ضد يوزاره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدي رسالة
ربه فذهب إلى الطائف - وبها بطون ثقيف - وعمد إلى أشرفهم وذوى الرئاسة منهم وهم
إخوة ثلاثة عبد ياليل ومعهود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم
إلى الله وكلهم بما جاءه من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم
ردا قبيحا فئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونونه ويصيحون به حتى اجتمع
عليه الناس والجثوة إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان
يتبعه . ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن عدى يخبره أنه يدخل مكة في جواره فأجابه
إلى ذلك ثم أساح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن
ادخل فدخل رسول الله نطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ففى ذلك
يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفى

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعيا من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ
عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوهوا دونه حتى يؤدي رسالة ربه فكانوا لا يجيئون
إلى ذلك ، ومنهم من يرد عليه ردأ قبيحا . عرض ذلك على بنى عامر بن صعصعة
فقال كبيرهم أرايت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن
يكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفندف نخورنا
للأرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك وعرض ذلك
على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبج ردأ منهم

فى ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين الأوس والخزرج وكانت
الخزرج أكثر عددا ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم
من الخزرج فأرسلوا لذلك وفدأفيهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس بن معاذ فلما
علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا

وما ذاك ، قال أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعومهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه إياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بعث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزرأ بعد أن انهزمت أول مرة

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعون منه وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام فقالوا له إما قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من المداورة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فدعومهم لأمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قريتهم ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر - وفي الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى في التاريخ بيعة النساء ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار ، قصي

وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم في المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب في الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه في ناديتهم ، فقال يا بني الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيية ، قال فإن كلام نساءكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فرائه ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون خيلة من الأوس أخرها عن الإسلام صبي بن الأسلت المكنى بأبي قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان المرسوم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومه لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بني مازن ابن النجار الخزرجية وأسما بنت عمر وإحدى نساء بني سلة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعنا من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزم قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه وما نعموه من خالفه فأتهم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه - بعد الخروج به إليكم - فن الآن فدعوه فإنه في عزم ومنعة من قومه وبلده ، فقال المتكلم من

الخزرج قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله نخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك عما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورتنا ما كبراً من كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً لا ولنا قاطوها (بني يهود المدينة) فهل عسيت : إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله — أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال فتبسم الرسول ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم يعني أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ليكروا نوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بني مالك بن امرئ القيس من الخزرج

(٣) عبدالله بن رواحة من بني عمرو » » » »

(٤) رافع بن مالك من بني زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور من بني سلمة بن سعد

(٦) عبدالله بن عمرو » » » » من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت » غنم بن سالم » »

(٨) سعد بن عبادة » ساعدة » »

(٩) المنذر بن عمرو » »

(١٠) أسعد بن حضير من عبد الأشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيثمة من بني كعب بن حارثة » »

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعا البراء بن معرور وبني النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبني عبد الأشهل يقولون إنه أبو الهيثم ابن التيهان : والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد أن انتهت

المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحلم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريش الجاه رؤسائهم إلى منازل الانصار وقالوا يا معشر الخزرج قد بلغنا انكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ولأنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما هلباء وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبي بن سلول — وهو سيد من ساداتهم لم يسلم أن هذا الأمر جسيم : ما كان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته فأنصرفوا عنه نفر الناس من منى وتجمست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن قاتهم الانصار بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها والحق بإخوانهم من الانصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمنون بها فخرجوا لرسالة رجالا ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فلم يبق إلا أخذ الحيلة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأي أن نحبس في الحسيد ونعلق عليه باباً ثم نترصد به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأى أنن حستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم نخرجه من بين أظهرنا فتفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصاحنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأى ! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته علىلوب الرجال بما يأتي به لو فاعتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد : فقال أبو جهل بن هشام إن لي رأياً فيه ما أراكم وقعتم عليه ، وهو أن نختار من كل قبيلة شاباً من جلدأ

نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل قتي منهم سيفاً صارماً ثم يعددوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه ففستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قورهم جميعاً . فرضوا منا بالعقل فعلقناه لهم فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيأ ما يلزم لهذا السفر : راكبتين ودليلاً خريئاً يأخذ بهما أقرب الطرق وانهذا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صباحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتجسس ببرده لئلا يرئاب أحد في وجده بيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى تؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده في الليلة التي تجتمع فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج إلى بيت أبي بكر ، وخرجاً معاً من خوذة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمداً إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاة عامر بن فهيرة أن يرفع غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ليعني أثر عبد الله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسى بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قريش حاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أرميتاً مثثة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالاً ولكنها عادت بالخبيثة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل - حسبما اتفقا معه - بالراكبتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أجم ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدجلة

لقف ثم استبطن بهما مدلجة بجاج ثم سلك بهما مرجع بجاج ثم تبطن بهما مرجع
ذى العصوين ثم بطن ذى كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم
من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبايد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج
وهى من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن
يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على نبي عمرو بن عوف وذلك
يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو
يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام
وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه السلام فتنبه بفصلين أولهما في التشريعات
المكية والثاني في آثار هذه المدة

المحاضرة العاشرة

التشريع المكي

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة
وخمسة أشهر و٢١ يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه
في أثناءها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي - وهوائنتان
وعشرون سورة - نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهى (٢) البقرة
(٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور
(٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨)
المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) المتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون
(٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر . وما عدا ذلك فهو مكي
وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبين
روحه قوله تعالى فى سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي
أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾
ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات بالتشريع الكلي وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله - من الشرائع الأبدية التي لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - أن يكون متبعا لها متقادا لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج (ملة أيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم - في سورة الأنعام - بعد أن قص عليه أسماءهم (أولئك الذين هدام الله فبهداهم اقتده) إلى غير ذلك وأهم ما جاءت به الآيات الملكية هو :

(١) التوحيد ورفض الاوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة . معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنهى على المتوسلين بها مذاهبهم تصریحا وتلمیحا : ضربت الأمثال بالأمم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل ، وكثرت ذلك تكرارا مؤثرا بأساليب مختلفة : لأن أشد ما يفعل في النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب . وأكثر الأنبياء ذكرا في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات الوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبودا ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع في هذا الشرك ، وإبعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه : وقلنا نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكروا بما كان عليه أبوم إبراهيم من كراهة الأوثان وتكسيدها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لأحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال

لئن لم يهتدي ربي لا كون من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذاربي ، هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما أشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ما أنا من المشركين) ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه الأنفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة وجز ذلك - بالضرورة - إلى تحريم كل ماذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دأتم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمرُوا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التي يشرع فيها الإنسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتماثيل لأن الأمر كما علمتم - يحتاج إلى مقاومة شديدة فإن النفس المتشعبة بالشئ الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قدرت عليه النفس من اتباع الأوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة يد غيره يدخن بها لاشك أنه يحسن بحركة في نفسه تذكره بذلك الآلاف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الأمر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة لحماية لهذا الضعف الإنساني كرهت التصوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع : ولذلك لما رأى عمر ابن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها

(٢) لإثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً ، وقد نصبت الآيات الحكيمة على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكرره تذكراً عظيماً يقرب مما كان في أمر التوحيد والائتلاف ونصت على أن العدل سيجرى

بجراه بعد أن توزن أعمال الإنسان فن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب إذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الإنسانى من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت تديجتها في الناس وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً على ما يناله صاحبه مهما دقّ (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع إلى فعل الخير وأخبرهم أنّ الحسنة إذا تلت السيئة محوها . والذي يفهم من القرآن أنّ الحسنات المؤثرة في محو السيئات إنما هي العملية

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب إلى الله والتي تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق والمملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)

ويقول في سورة الأعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین) ويقول في الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيها (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور) وقال في سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) جمع لهم في سورة الإسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشدّه تأثيراً فيرونها يتلى كل وصية بفائدتها اقرؤا - إن شئتم - من قول الكتاب (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، إلى آخر السورة ، واستقصاء

ذلك يستدعى وقتاً طويلاً وإنما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الأرواح حتى تعلموا بهم كانت يوصيهم وكيف كانوا يحيونه ؟؟ فإنه لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزل الله عليه (٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدن منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد عدله الوحي كيف يؤديها - كما ورد في الأخبار الصحيحة - والصلاة وحدها هي التي فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلاً إنما كان عملياً لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزائها ولا أوقانها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة وقد نقلت نقلاً عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون بمن يستحقون الويل (الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الإسراء حينما عرج برسول الله إلى الملاء الأعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم تتبعها بما يظن لنا : الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلاً ، ويراد به - في لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته . والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السبل المائلة ويراد به صعود رسول الله إلى الملاء الأعلى

الإسراء ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولسكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مشاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذي سمى في ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضاً منهم ارتد

واختلف المتكلمون في أمر الإسراء : فروى عن معاوية بن أبي سفيان أن الإسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وروى عن عائشة أن الإسراء

إنما كان بروحه لأن جسمنه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القولين واحدة ، لأن الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قدمات إذ لم يقل بهذا القول أحد لا عائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلها الله في حالة النوم على شيء من الآيات التي هي في جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا - كما قدمنا - نوع من الوحي للأنبياء ويستدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى في السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) وقد قال الحسن البصري راوى حديث الإسراء فأنزل في ذلك قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا) الخ

وجهور المسلمين على أن الإسراء كان بجسمنه ويستدلون على رأيهم بأن الإسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ما الذي يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى ما في الأرض في رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون إلى رأى عائشة ومعاوية ، لأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة ، بل لأنهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواه عيانا وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمومة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الإسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا في زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أن أحدا قام في وجههما راداً عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن إسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا) الخ وعائشة زوج الرسول - وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة - أدري الناس بما كان من حوادثه التي أكرمه الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً في مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم في وجهه الصعابة معارضين على حين أنهم كانوا يرتدون عليه القول ردّاً شديداً في أسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل . لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول د سبغان الذي أسرى بعبد ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لثريه من آياتنا ، والمتفق عليه أن المراد بعبد محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه في نومه

على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه في يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوامنه عليه السلام أسرى في الليلة إلى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء في الكتاب - (لانسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين والله أعلم أي ذلك كان قد جاء وعين فيه ما عين من أمر الله على أي حاله - نائماً أو يقظان - كل ذلك حق وصدق اه
أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق في شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة ميزات منها المرة التي كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه يجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأي من يقول بالإسراء الجسمي لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة لجعله قبل أن يوحى إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشق الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب - ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الأمر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمان لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعليه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل

الذى تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فإننا قلنا نجد من الأوامر المسكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة ما يخرج من الأرض في سورة الأنعام (وآتوا حقه يوم حصاده) إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

ومما يلفت النظر إلى الآيات المسكية أن قارئها يحسّ فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات المسكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العقوبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليه ومرة يرد أقبح ردّ من العرب الذين يردون الموسم ، وما نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة بما تملوه عليكم من الآيات ^(١) (ولتعلن نبأ بعد حين) ^(٢) (إنا لنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ^(٣) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ^(٤) (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براعة في الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر) ^(٥) (ولوترى إذ فزعوا فلافوت وأخذوا من مكان قريب) ^(٦) (قل رب إمامتني ما يوعدون رب فلا تجمعاني في القوم الظالمين) ^(٧) فقد كذبوا (فسياأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) ^(٨) (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) ^(٩) (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون) ^(١٠) (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) ^(١١) (فأعرض عنهم واتظر لآلئهم منتظرون) ^(١٢) (فارتقب لآلئهم مرتقبون) إلى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتي ظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشدداً ومنبهاً كما حصل في حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعشى فقد حدث أن رسول الله قابل جمعاً

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر (٥) سبأ

(٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم (١٠) السجدة

(١١) السجدة (١٢) الدخان

من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه : فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله علني بما عليك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعا في أولئك العظماء ، فجاءه الوحي بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك له له يركى أو يذكر فتنفخه الذكرى أما من استغنى فأنت له تهذى وما عليك أن لا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهذه شدة أدبه الله بها كما قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعى عناية كبرى في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ما شرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه ببعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة : وبحسنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك تقتصر على ما جاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستباط لأن ذلك ليس من عملنا



المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال - الموائيق والعهود - أسرى الحرب -

الاسترقاق - لم شرع القتال - ؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدي ، الثاني : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو بصدد من أراد الدخول في الإسلام عنه أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الأول - جاء في سورة الحج ، وهو أول ما أنزل في أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور)

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظللوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ألا قولهم ربنا الله يعني أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى (وإن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق) ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أركان العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظللهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الموضع الثاني - قوله في سورة البقرة المدنية (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وقاتلوا من حيث تفتنهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل - ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه فإن قاتلوكم قاتلوا كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوا من حيث لا تكون فتنة ويكون الدين لله - فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات خصص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حراً في دينه لا يدين به إلا الله لا خوفاً ولا طمعاً وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من نبي الإنسان : نهى الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله ينهض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء - لا ينبغي أن يتجاوز به مافعله البادئ بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث - قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سيدين للحدث على القتال وهما (أولاً) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحبل بينهم وبين الهجرة فعذبهم قريش وفقتهم حتى أضربوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فوؤلاه لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتزيلهم الحزبة فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع - قال من قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الذين جانباً : (فإن اعتزلوكم لم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلاً) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لا ذبذبة هدم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلا ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يهتزلوكم وبلغوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم نخزهم وأقربهم حيث تفتحوهم وأوائكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً) بينت هذه الآيات أن لاسبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام

الموضع الخامس - قال في سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي مآدته آية البقرة

الموضع السادس - قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع - قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون

قوما نذكثوا أيماهم رهمرا بإخراج الرسول رهم بدأوكم أول مرة ؟ أنخشونهم ؟
فالله أحق أن أن تخشوه إن كنتم مؤمبين)

بيئت هذه الآية سبباً لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطمن في الدين بالفتنة وذكر كرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والنالكثون عهدهم آخرا وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم
كان اليهود قد مالتوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد مكتوبة فتقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهد فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء في سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الحزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة

هذا ماورد في الكتاب خاصا بأمر القتال ، وكلاء يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعا عن أنفسهم ، وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها وأعلن أنه لم يحى متعدياً بنهيهم عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سلمه

وبما يؤيد تلك الروح السلية ويوضحها ما جاء في سورة الممتحنة (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

العهود والمواثيق

بما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب في أول سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهد » وقوله في سورة الاسراء (وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مشئولاً ﴿ وقوله في سورة النحل ﴾ ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالأتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾
وأما الخاصة

فها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أدخلوا بعهدهم ، وأظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكروهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الأنفال ﴿ وإما تخافون من قوم خيانة فأنذروهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سرّاً ضدكم قال ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهذا نص على وجوب احترام أرض ذرى الميثاق وأنها تحمي الواصل إليها

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجب به قتل مسلم خطأ فقال ﴿ وإن كان - المقتول خطأ - من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ وهذا بعينه هو الذي أوجب في قتل مسلم خطأ ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴾ وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال ﴿ فإن كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها ﴿ وإن استصروكم في الدين فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار ﴾ ﴿ فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار ﴾ فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار ﴿ فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار ﴾ فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار ﴿ فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار ﴾ فاعلموا أن الله لا يهدي قوم كفار

لم يجعل للسلم أمدا بل ذكره مطلقا في قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »
أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة القتال « حتى إذا أنزحتموه
فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، لجعل ماخير فيه
أولياء الامور المن وهو العفو والإرسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض
ولم نر في الكتاب غيرهما

وأما لمزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ،
فقد قال في سورة المؤمنین المكية « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو
ما ملكت أيمنهم فإنهم غير ملومين » وقال مثل ذلك في سورة الماعز المكية
أيضاً أى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال في سورة النساء المدنية
« فإن خفتهم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمنكم ، ثم رغبتهم شديداً في
تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الأولى - أنه جعله في سورة البلد المكية من أوزار الواحبات على الإنسان إذا
أراد أن يشكر الله على نعمه فقال بممتنا على الإنسان « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين
وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقعة أو إطعام في يوم
ذى مسغة يتما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر
وتواصوا بالمرحة ، أولئك أصحاب الميمنة ، فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها
يقوم الإنسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية - أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهماً من ثمانية يعنى أن الإمام
الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب

الثالثة - أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال
في كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، وقال في كفارة
الظهار « والدين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن
يتماسا ، وقال في كفارة اليمين « فكفارتها إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون
أهلكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، ذلك كله فضلاً عن الترغيب الكثير من

صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها
هذا ما أحببنا أن نورد على أسماعكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير
متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لأن ذلك علماءهم
أدرى به ما وركزوا غير مركزنا التاريخي الذي يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح
للدورخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم
الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد
قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الانصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادي
رانوما في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلمها على قبيلة
من قباةوم ناداه رئيسها فلم لإينا يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة
فكان يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة (لداقته) حتى إذا أتت دار بني مالك بن
النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها
الأول وبركت فيه ووصعت جرائنها نزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا
المنزل إرشاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المريد الذي
بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل اني عمرو وهما يتيمان لي
وسأرضيما منه ^(١) فاتخذ مسجدا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا
ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومسأكه فانتقل من بيت أبي أيوب إليها
ثم تلاحق المهاجرين فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو مجوس أما المدينة فعم
أهلها الإسلام إلا قليلا منهم

ومن أول الأعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والانصار
وإدع فيه اليهود وعادهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وأن

(١) روى من طريق آخر أنه قال يابني النجار ثامنوني بحائطكم فقالوا لا والله
لا نطالب ثمة إلا إلى الله . ويروى أنه أبي إلا بالثمن والذي اخترماء هو رواية ابن
إسحق وهي توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخاري

من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه
وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين - ماداموا محاربين - وأن يهود بني عوف أمة مع
المؤمنين ، لليهود دينهم والمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا
نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم
وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار
كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل
هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فسادة فإن مرتد إلى الله عز وجل وإلى محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى . في هذه الصحيفة وأبرته وأنه لا تجار قریش
ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صالح يصالحونه
ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويابسونه

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدي المهاجري والأنصاري ويتول
تأخوا في الله أخوين

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة التي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون
هناك تشريش في التاريخ قسما أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة :
الأعمال الحربية - التشريع - الأخلاق التي ساس بها أمته

المحاضرة الثانية عشر

ودان - بواط - العشيرة - بدر الكبرى - بني قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم
الآفاعيل واستولى مشركو أمكة على مآثر مكة المسلمين فيها بعد أن بارحوا أو طأنهم مرغمين
فكان ذلك داعيا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي
يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثني عشر شهرا أخرج في صفر من السنة الثانية إلى ودان^(١)

(١) سمي المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم

وكان يريد قريشاً ونى ضمرة من كدانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً : أقام بالمدينة بقية صفر وصدرأ من ربيع الأول . وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة ابن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة^(١) فلقى بها جمعا من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللسلمين حامية . وبعث في هذه المدة حمزة بن عبدالمطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص^(٢) في ثلاثين راكباً فلقى أباجهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعا للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بواط^(٣)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى العشرة^(٤)

في جمادى الأولى خرج حتى نزل العشرة من بطن يذع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية ووادع فيها نبي مدلج وحلفاءهم من نبي ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفي مقامه بالعشرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الحرار^(٥) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

سموا

أقام عليه السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشرة فعلم أن كرز بن جابر لم يحارب وما خرج فيه أحد قاداته سرية . وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قرية من الجحفة التي هي على أربع مراحل من مكة وست من المدينة (١) ثنية في شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام (٤) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد (٥) واد قريب من ينبع

الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان^(١) من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبدالله بن جعش - ومعه ثمانية رهط من المهاجرين - بأمر غير مفتوح - وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لما من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأمر بها عبدالله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمروا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأثر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهم إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استأثم منهم ؛ وقال ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال ولما كثر الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصدعن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعني إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا

(١) واد من ناحية بدر

من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلحكموها فاتدب الناس نخبة بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول ياتي حربا وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الاوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محتسماً أمامه العيون فأخبر - وهو يسير أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلاً يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ بطن الوادي - يا معشر قريش : اللطيمة اللطيمة يا معشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث - فجهز الناس سراعا وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً فكانت عدتهم بين التسعمائة والآلاف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى إذا قارب بدر أجهزته الأخبار عن قريش بأنهم نفرّوا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنّا ، وقال له المقداد بن عمرو يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا علي أيها الناس وإنما كان يريد الانصار ، لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونهم ما دام في ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دمه في المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم ؛ فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؛ قال

أجل فقال له سعد قد آمنابك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموathيقنا على السمع والطاعة فاهض يا رسول الله لما أردت فتحن معك ! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا نصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ؛ ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريبا من بدر بلغه أن أباسقيان قد نجا بالعير وإن قريشا وراء وادى بدر - وكان أبوسقيان قد ساحل بالعير فتجا ، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبوجهل وقال والله لا نرجع حتى زيد بدرأ (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثا فتتحرر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتنزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا ويجمعنا فلابزالون يهابوتنا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الاخنس بن شريق الثقفي حليف بنى زهرة تشدد أبى جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدرأ في صفوف المشركين زهرى ، وكذلك لم يشهد من بنى عدى أحد : مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادى الدنيا ، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ؟ وقال له يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! : قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فنزله ثم نغور ما وراه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأى وفعل كما قال

ثم إن سعداً قال الرسول يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم تلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما احببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فاحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يابى الله مانحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك

يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأنتى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

نرامى الجيشان : فلم يكن بدمن الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفأنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبة وعلى بإزاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذقفا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب فى ذلك النهار ، فإن الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل ابن هشام رأس هذه الائن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقيون : ولما انتهت الواقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يديرانهم بالفتح أحدهما - وهو عبدالله بن رواحة إلى أهل العالية ، والآخر - زيد ابن حارثة - إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالباً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثانى عقبة بن أبى معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فزقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزة بن ابن عمير : كنت فى رده من الأنصار حين أقبلوا بى مزبدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ماتقع فى يدرجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ! قال فأستحي فأردتها على أحدهم فإردتها على مايسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين يدر

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء

من قريش في الأسرى ، وكان بعض الصحابة - ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم ، وكان رأى أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبي بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم ، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلموا ما غمتم حللاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤنكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فن حضر فداؤه أرسل ومنهم من من عليه بغير فداء منهم أبو هرة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الانفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدأت بأمر الانفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذی القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي - وهو أربعة أخماسها - للغنائم : وقد خص عليه السلام سهم ذی القربى بنی هاشم والمطلب ابنی عبد مناف ولم يعط منه بنی نوفل وعبد شمس ، ثم قص في السورة خروج المسلمين إلى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولنطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتسكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله وتسكلم : فيها عن السلم والجنوح إليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى إلى غير ذلك من الأحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر إلى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمانينة فإن عددهم كان ٣١٤ رجلاً ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقونها ، وقريش كانت بين اتسمائة والالف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين

وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم مالا يخفى مكانه . ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب فإن الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهمزمت بقيتهم لا تلوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده لإحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله ثباتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيه عن أهز شيء في الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهتم الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة لإحدى الحسينين وكل هذا للمحارب بمثابة امدادات يراها متوالية الورد

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ما قيل منه ما قاله قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث

يارا كبا إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية	مالن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخفق
هل يسمعنى النضر إن ناديتـه	أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أحمد ولدتك خير نجية	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	من الفقى وهو المغيط المحقق ؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن	بأعز ما يفلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقق
صبرا يقاد إلى المنية متعبا	رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — لما بلغه هذا الشعر — لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

الكدر

لم يبق بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شتوالم وذا القعدة ، وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبوسفیان حين رجع فل قريش من بدر نذراً لايمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه حتى - كان من المدينة - على نحو يريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حتى بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بنى النصار المعاهدين لرسول الله والمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبوسفیان بخبره ثم خرج في عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فخرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذروهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبوسفیان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبوسفیان هتد منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وإني تخيرت المدينة واحداً	لخلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كيتاً مدامه	على عجل مني سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت - ولم أكن	لا فرحه - أبشر بغزو مغنم
تأمر فإن القوم سر ولانهم	صريح أوى لاشماطيط جرم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أنى ساعياً من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلاً منه

الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشا حتى بلغ بحران وهو معدن.

بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهرا ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدا
أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم - كما قاله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر
ابن قتادة - وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيا من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد
لا يغرنك أنك لفيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك
لتعلن أنانحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهرا بحادثة وقعت في سوق
بني قينقاع ، سبها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعديا معيبا فصاحت
مستغيثة فأغارها رجل من المسلمين فقام إلى اليهود فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه
وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج إليهم رسول الله وحاصرم في
ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها
إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج
أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك
عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقبهم على الفردة - ماء من مياه نجد -
فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعين على رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهوديا من طي ثم من بني نهبان وأمه من بني النضير ، فلما
انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران
أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمداً أصاب
هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة
فنزّل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على
رسول الله ويقول الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طعنت رجا بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت شراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة تأوى إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت	حمل أثقال يسرد ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذي أثر الحديث بطعنة أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بني المغيرة كلهم خشعوا القتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه مانال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم في الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحصى على الحسب الكريم الأروع
ثم رجع إلى المدينة فشعب بنسأه المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من
الأنصار فقتلوه جزاء خيائته العهد

المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فاهم إلى مكة ورجع أبو سفيان
بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من
قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب
ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم
وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلمنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا
فقلعوا واجتمع قريش لحرب المسلمين بأحاديثها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل
تهامة وكان أبو عزة الجمعي الذي من عليه الرسول يبدر طلب منه صفوان بن أمية
أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك
فلك الله على أن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصبن
ما أصابن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير
ابن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ
بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حزة عم محمد بمعنى طعيمة فأنت عتيق فخرجت
قريش بحدها وجدوها وأحاديثها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم

بالطعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل بيهان السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أخرج إليهم أم يقيم في المدينة ؟ فقال له عبدالله بن أبي بن سلول - وكان رأساً في الانصار إلا أنه كان يضمر نفاقاً - نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى المدق فدخل عليه السلام إلى بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خات من شوال ^(١) حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من الصحابة حتى إذا كان بالشوط انخزل عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وقال أطاعهم ودهاني ما ندرى علام تقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لا يقاتل أحد منكم حتى تأمره بالقنال ثم تبع عليه السلام القتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبدالله بن جبير وقال له انضح الحبل عنا بالنبل ، لا يأنونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فائت . مكانك لا تؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت فريش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها ذكوة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يابني عبد الدار إنكم قد ولّيتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا إما أن تكفونا لواءنا وإما أن تغلوا بيننا وبينه فتكفوا فكموا به ونوادوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً

(١) حسب تقويم مخنار باشا المصري كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه

(١٩ مارس سنة ٦٢٥)

إذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلون من المسلمين منهم حمزة بن عبدالمطلب وأبو دجانة سمالك بن خرشة الساعدي وعلي بن أبي طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشكّ فيها - إلا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخالوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاخذت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بذت علفمة الحارثية زرفعتة لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا ، وعما زاد في دهشهم وأضعف عزائمهم أن رجلاً قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فأنكشفوا فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم حتى رمى بالحجارة ووقع لشقه فأصابت رباعيته وشجّ وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ عن بن أبي طالب بيده ورفع طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الانصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقالت في ذلك اليوم أم نسيبة بذت كعب وهي بمبايع يبعة العقبة وكانت في أول النهار تسقى الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحاً شديداً ، وقدامتاز جماعة من الانصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان الببل يقع في ظهره وهو منحني على رسول الله حتى كثر فيه الببل ومنهم سعد ابن أبي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد الانصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن انصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا اليه ونهض معهم نحو الشعب

معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل
أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من
الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدادأمنها عن فرسه مراراً وخدش
في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد
الذي قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى إلى قم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس
لجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعاقه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه
الدم وصب على رأسه . وبينما هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونهم
لأذعن عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأيت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من عار بدر فاكثفت
به وعوات على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته - بحيث يسمعه
من في الشعب - وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ،
فقال عليه السلام قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لاسواء : قتلانا في الجنة وقتلناكم
في النار ، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إلى يا عمر ، فقال له الرسول أنت
خاظر ما شأنه لجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم
بلا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندي من ابن قنفة وأبر ثم نادى
أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل والله مارضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت ، ثم
نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو يبتنا وبينك موعد
وكان الذي يهيم الرسول صلى الله عليه وسلم في موقعه أن يعلم ذات نفس قريش ،
أيريدون المدينة أم ينصرفون إلى مكة فأرسل علي بن أبي طالب فقال اخرج في أثر
القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل
فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي
نفسى بيده لئن أرادوها لاسيرن إليهم فيها ثم لانا جزئهم نخرج علي في أثرهم فرآهم
جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون إلى قتلاهم قذفوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي
ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فلقيته في الطريق حنة بنت جحش فتني إليها أخاءاً عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها ليمكن لها رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصيادها على زوجها . ومريم امرأة من بني دينار من الانصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعى لها قالت فما فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً يأم فلان هو بحمد الله كما نحين قالت أروني حتى أنظر إليه ؟ فأشير لها إليه حتى إذا رآته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطالب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليعظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بهم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حراء الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثني والثلاثاء والاربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکہم عيبة نصيح للمسلمين بتهمة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ؛ فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عاقاك فيهم ثم تركه بحمراء الأسد وسار حتى أتى أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ؛ وقد جمعوا الرجعة فإنهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحداً أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم ترجع قبل أن نستأصلهم انسكرت على بقيتهم فلنفرغن منهم لما رأى أبا سفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحزقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وتدموا على ماضيهم فيهم من الخنق عليكم - شيء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فتني ذلك أبا سفيان ومن معه والذي اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حياءاً بذلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ؛ وانهمز عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ؛ ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا

عن أحد لم يرجعوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الانصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجاتهم فيكون ماتسكرو قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون وما يدل على ذلك أن أباسقيان كان يريد أن يرجع على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لا تفعلوا فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا فارجعوا وعند انصراف الرسول من حراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي الذي من عليه بعد بدر ، فقال له أفلاني يا محمد فقال عليه السلام والله لا أمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خذت محمداً مرتين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلاً أربعة من المهاجرين وباقيتهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً

أنزل الله في هذا اليوم سنين آية من القرآن : في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى « ولما غدوت من أمالك تبوء المؤمنون مهاد للقتال والله سميع عليم » إلى قوله فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتنقوا فلكم أجر عظيم وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد (٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم - بالطف إشارة - على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشتم وتنازعتم في الأمر وذهبت من بعد ما أراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف من الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشتمات بهم (٧) إعلان العفو عن المنهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما

استزلمهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم (٨) الثناء على شهداء الواقعة والإخبار أنهم (أحياء هند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثانی يوم أحد بعد أن أصابهم القرع ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيماً وقد قيل في هذه الواقعة كثير من الشعر العربي قالته قريش والمسلمون : نقله ابن هشام في سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً فلو أرسلت معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الإسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشموهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقاتلهم هذيل إنا لا نريد قتلكم ولأكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نعذر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران بعباءة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة - حين قدم ليضرب عنقه - أنشدك الله يا زيد أتحب أن يمحداً عندنا الآن في مكانك يضرب عنقه وأنت في أهلك قال والله ما أحب أن يمحداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شركة تؤذيه وأنا جالس في أهل فيقول أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر ابن مالك الملقب بملاهب الأسنة العامري فمرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم

ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدهوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام إنى أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدهوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحره بنى سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبى براء فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم : عصية ورعل وذكو أن فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم فى رحالهم فلما رأهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلهم حتى قتلوا من آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن أمية الضمري لأنه كان فى الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتالها وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتلين قال هذا عمل أبى براء قد كنت لهذا كارها متخوفاً ثم قال لعمرؤ لقد قتلت قتيلين لأدينيهما

المحاضرة الرابعة عشرة

إجلاء بنى النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق
وقريظة — بنى المصطلق

إجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام إلى بنى النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلىن اللذين قتلها عمرو بن أمية وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا لأنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم) فن

رجل يعلو هذا البيت فبقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال - ورسول الله في نفر من أصحابه - فجاءه الوحي بماعزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدربه وأمر بالتيؤ للحربهم والسير إليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافق أهل المدينة إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلحكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتلوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خير ومنهم من سار إلى الشام

ونزل في أمر بني النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بني النضير ثم عين حكم الأموال التي تركوها وسماها فيئا وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد ، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بني محارب وثعلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلا اتى بها جمعا عظيما من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضا حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعد أبي سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدرأ وأقام ينتظر أبا سفيان أما هذا فإنه خرج بقريش

حتى بلغ مجنة أو عسفان ثم بدا له فقال أيها الناس إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب
ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب ولاني راجع
فارجموا فرجع الناس ، وكان ذلك بما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها
الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون
الخنديق

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم
جماعة من بني وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعهم إلى حرب رسول الله وقالوا
إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب
الأول والهلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم
خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشا ونشطوا لمادهم إلى فاجتمعوا
لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعهم إلى مثل مادعوا
إليه قريشا وأخبرهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعهم على ذلك فاجتمعوا
معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم
عبيدة بن حصن في بني فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن دخیلة في بني
أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة
بإشارة سلمان الفارسي وقاسى المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكموه
ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بهجمع الأسياح من دومة بين الجرف وزغابة
في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذي ندى إلى جانب أحد وخرج رسول
الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب
هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري لجعلوا في الآطام
خرج حي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة
وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره إذا أصابته
حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه
ثم قال - إني قد جئتكم يا كعب بعز الدهر ويبحر طام جئتكم بقريش على قاداتها وساداتها
حتى أنزلهم بذنب نعمى وقد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل

محمدًا ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حي بكعب يقتله في الذروة والغارب حتى نقص كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم بهم أكثر مما يهمهم أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيرا في مركز جيشه فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا من رسول الله لا ههنا وبيننا وبين محمد ؟ فشاطمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عباد دع عنك مشاتمهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين .

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار. ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمرا يفرق به كلة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان قبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عباد فاستشارهما فيما رأى فقالا يا رسول الله أمرا نحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لأبد لنا من العمل به أم شيئا آتصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو يبعأ أخينا أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فنهزم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من قر :

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يا رسول الله إني أسلمت ولم يعلم قومي
يا سلامي فرني بما شئت فقال له عليه السلام : إنما أنت رجل واحد نخذل عنا
ما استطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية
فقال يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم وإن قريشا ليسوا مثلكم .
البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدر أن تتحولوا منه إلى غيره
وإن قريشاً وغطفان قد جاؤا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه وبلدهم وأهلهم
ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم
وبين الرجل ولا طاعة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً
من أشرافهم يكونون بأيديكم ! قالوا : لقد أشرت بالرأي ، ثم خرج أتى قريشاً
فقال لأبي سفيان بن حرب - ومن معه من رجال قريش - قد عرفتم ودي لكم وفراق
لمحمد وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم . إن معشر يهود
قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا
فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم فنعطيه
لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم
أن نعم فإن طابت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً
ثم جاء غطفان فلعب بعمق ولهم بمثل ذلك :

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة
عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف
والخافر فاغدوا للقتال حتى تناجز محمدأ فقالوا لهم : إن غداً السبت ، وهو يوم
لا نفعل فيه شيئاً ولأسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدأ معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم
يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بذلك الرسالة تأكدت قريش
وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم أحداً
من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ بما قال لهم
نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودبّ حينئذ إلى القلوب
الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة
شاية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيةهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فإذا أبوسفیان يقول لهم لينظر امرؤ من جلسيه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبوسفیان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره وأقينا من شدة الريح ماترون ما نطمئن لما قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخدقون على ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكان يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقات الأعداء واضطروا - بحكم ما هم فيه من الشدائد - أن يستعينوا بالخدع التي تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عافدوهم من بني قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداة الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الأحزاب - أن يتوجه المسلمون إلى بني قريظة ليعاقبوا عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكماً يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبدالله بن أبي في مواليه من قينقاع بإجلالهم فلم يرض ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المزة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاء ركم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى

المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش و غطفان ، ثم بين حال المفاقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب في عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سبعين معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكله وقدمات بعد حكمه على بني قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل مراقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بنو حيان

أقام عليه السلام بالمدينة — بعد الخندق — إلى جمادى الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بني الحيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغيران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو الحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رموس الجبال فعاد إلى المدينة

ذى قرد

لم يقم بالمدينة إلا ليال قلائل حتى أغار عيينة بن حصن — في خيل من غطفان — على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلة بن عمرو بن الأكوع الأسلي فأشرف في ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكوع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هارباً ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفرع الفرع فترامت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد

ابن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشنتون في أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بنو المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للنسب على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنو المصطلق فما علم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذي القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمرا لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ؛ فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه ؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا بدخلها علينا عنوة أبدا ولا نتحدث بذلك عنا العرب !! ثم

بعثوا اليه رسولا آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديل ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلهذا رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش ما على هذا حالنا كم أیصد عن البيت من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلى بين محمد وبين ما جاء له أو لفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه - كف عنا يا حليس حتى نأخذه لأنفسنا ما نرضى به . ثم بعثوا له هروة ابن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يا محمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بیضتك لتفضنا بهم إنما قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد ابسوا جلود النور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا یحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كله عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم یأت يريد حربا وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يا معشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقیصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قوما لا یسلون له شیء أبدا ، فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك عمر بن الخطاب لیرسله إلى قريش حتى یبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وایس بمكة من بنى عدى أحد یمنعنى وقد عرفت قريش هدوانى لها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أنى سفیان وأشراف قريش یخبرهم أنه لم یأت للحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقیه أبان بن سعید بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى یبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول الله قال لا تبرح حتى

تناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا ، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة .

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو والعامري وقالوا له انت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عما عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه :

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً ثم سارح الراكب ، السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش :

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض :

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه :

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه :

ثم دعا عالياً ليكتب الكتاب بذلك فأبى عليه باسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أبى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ماقاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انقلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلايبه وقال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أوردوا إلى المشركين يفتنونني في ديني ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل - عملاً

بوثيقة الصالح - عملاً بالآية الكريمة (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) :

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصالح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يهاؤنوا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون في ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضىها عليه السلام وظن بعضهم أنها لاتليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يا رسول الله ألسنت برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام تعطى الدنيا في ديننا قال أنا عبد الله ورسوله إن أخالف أمره ولن بضيعنى : لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحال المسلمون من عمرتهم بنجر الهدى وحلق الرؤوس أو تقصيرها فنجر عليه السلام وحاق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رؤوسهم أنزل الله في هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سميت في أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس آمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب إلا لأأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي ضحى في نيل ذلك إنما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون - ثم ذكر في السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد المنافق ، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ما سيغذرون به ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التي من أجلها امتنع الرسول عن الحرب - ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فلم مالم تعلموا لجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة آمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسرون حيث شاؤوا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يترقب بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا يفسون ماحل بهم وباخوانهم نصم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

نخرج في محرم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان قدومه هم على أثر بعث الرسول إلى النجاشي عمر بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نساءهم وأولادهم وبقيتهم جاؤا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدوا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب همة الحديبية فوصل إليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد في جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مضطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمراً أراهم اليوم قرة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهول وبهرول أصحابه معه حتى إذا وراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرهما

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثاً ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة

مؤنة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي ، وكان رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص من قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة ، فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام

فبلغ الناس أن هرقل ^(١) قد نزل مأب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في عمان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم في العدد القليل ، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فأنحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفي ذلك الوقت أظهر بهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمى بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عددا كثيرا أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جدا في جانب مائتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذا عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته إليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان إلا اثنا عشر نفرا فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا ويكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية دماء ، فلما كانت الهدنة اغتصمتها بنو الدئل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل ابن معاوية الديلي ورفدتهم قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا

(١) في تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس لي شكر الله على ما قبضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التي كان الفرس قد استلبوها وطرده اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك ب ورود المسلمين فسار إليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم

فيهم تخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد فأنشده شعرا يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم. لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهده ، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يجب أن تعلم قريش بمسيرهم فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبا عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عتة من خرج في هذا الحيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشره ضين من شهر رمضان سنة : ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بئر الظهران قريبا من مكة

كانت قريش محسة بأنه لا بد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عمت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين . وبينما المسلمون بئر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقي أباسفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيرا حثيثا ليستأن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من ييغضه فيها كما فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يا رسول الله قد أمنتته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به فذهب به حتى إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بآبي أنت وأمي ما أحلك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد قال ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بآبي أنت وأمي ما أحلك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا ، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يا رسول الله إن أباسفيان.

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ثم سار عليه السلام بخنوده حتى دخل من أهلي مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لا تستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعة على راحله ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال :

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهي في أعقابه إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين - دخوله مكة - بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل في الإسلام في هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد . يعتبر فتح مكة حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع خضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب

أمر حنين

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزاً وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين

وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوازن وثقيف قد كنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهيء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لايلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا إلى أيها الناس أيا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل . فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السمره فأجابوا ليك ليك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عذرهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وحدهم - نحو السبعين : وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظمن ولقد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة «لقد نصركم الله في موطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فصارهم مدة ، ثم عاد عنهم بدرون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة ، وتد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فنأكلنا من الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أننا ملحننا للحارث بن أبي شمر الغساني أول للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناءكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا فقال لهم أما ما كان لي ولبنى عبد المطالب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونساءنا فساءعطيتكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لي ولبنى عبد المطالب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار

ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد عليه السلام إلى هوزان أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجمرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أنولى على مكة فتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأنّ التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنه بن ربيعة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطاه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن ربيعة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسرّه وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضعة عشرة ليلة ثم انصرف قافلاً إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً

التشريع في المدينة

بيننا فيما سبق أنّ الذي نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن .

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منه بأمرين (الأول) ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثاني) ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونمى بالدينية مآثره ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقد بينها في سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة البقرة (الأول) في قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) (الثاني) في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (ولله هلي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) الآيات ولم يحج عليه السلام إلا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلي لألقاكم بعد عامي هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها في الكتاب شيء جديد وإنما بينها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نكمل في مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من

العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهي أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله

ماورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الأول - ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالاً شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجى ولكننا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصى الذى ترجع أوامره ونواهيهِ إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهى أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضى لنا أهل اللغة باسم العائلة وإلا سمينها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه

الثانى - ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث - ما يتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمى عقده (ميثاقاً غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودّة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباساً للآخر (هَنَ لِبَاسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسُ هُنَّ) ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهنّ ويسكن إليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أى تسكنون فيه

(٢) حزم التزوج بنساء يبنّهنّ فنهى فى البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى فى سورة النساء عن تزويج نساء يبنّهنّ من أول قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء، الآيات

وأجاز فى سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو إذا مأمور بالانتصار على الواحدة والأسلوب الذى جاءت به آية لإباحة التعدد مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبيه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن تأمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لم

إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) يعنى إن أمتم أن تعدلوا فإنه قال بعد (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) وبما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر بإعطاء النساء مهرأ عند الزواج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدىء به ولا ينتهى إليه

(٤) العشرة : كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرته امرأته (فإمساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة في البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً في الحقوق فإن الكتاب يقول (ولن مثل الذى عليهن بالمعروف والرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تتحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأقول الامر شكك الزوج في وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأى زوج لا يتأثر بما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح الرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها للسعى في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحاً فقال (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما)

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما (وإن يفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع في

الكتاب نظاما للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصيات شائنة هي لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الإنسان بعدهما بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم اتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتتظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الأول أن في إمكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجته بإحسان (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا) وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج إلا إن كانت بذية اللسان وذلك هو المراد بالعاشية المينة . اقرؤا إن شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) ثم قال (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر المرأة إذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتدر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال «فتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» وقال «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهانا وإثمنا مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»

فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

٥٥. فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد أن كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) ثم بين تلك الانصباء بياناً تاماً في سورة النساء.

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحفظلة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إثمياً يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا الصرف في أموالهم.

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوى فالذين يقولون ليس في الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب

المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات - الحدود - الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات في مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان للإنسان

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكله أشنع تمثيل كما ترونه في سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسن عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) إلا أن تكون تجارة حاضرة تدبرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذمهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من أو ثمن أن يؤدي أمانته

هذه هي الاصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الأول) (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلبوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) (الثاني) في آخر السورة حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) إلى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن أن يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بمحض أقاربهن سببهم في سورة النور وأمرهن في الأحزاب بإدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرارة حتى لا يتعترض لهن أحد في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر في التحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإفهام

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت في سررة الإسراء أن من قتل مظلوماً قد جعل الدين لوليهِ السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولي الدم عند العرب أقرب عاصب الإنسان (ويتولاه الآن ذر الولاية العامة فهو الذي صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصية العربية لم يعد لها أثر) وبين في البقرة أن كتب القصاص في القتل وأن القصاص لا ينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأتى بالأتى ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص فقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »

أما الحدود فقد ذكرها ثلاثة ، الأول ، حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة
« الثاني ، حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذا الحدان في سورة النور
« الثالث ، حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد « الرابع ، حد قطاع الطريق
وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم^٣
أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفذهم من الأرض ، وقد ذكر الكتاب
تلك العقوبات على شكل التخيير . ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل
حال فإن الكتاب قال (فإن تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم)
وهذان الحدان في المائة

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه الله في هذا الدين ليكون أساساً لأعمال
المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتوسعوا فيما أشرنا إليه
الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا في دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم
وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين
سموا بالانصار وكان الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق
أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق من لهم الرئاسة عليه
إلا أنهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الإسلام وأضرموا خلاف ما أظهروا
فسماهم المؤمنون باسم المفاقيين ، ويظهر لي أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإن
لم أرا العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترقب بهؤلاء الناس
حتى تخلف قلوبهم حتى أنه لمسامات عبدالله بن أبي بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه
في قبره له ونزل في قبره مع أنه كان سبياً عظيماً في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان
يتألف قلوب القوم ويودّ لو يكون باطنهم كظواهرهم لأن في هذه قوة كبرى

ودخل في الإسلام قليل من يهود المدينة كعبدالله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه
السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن
النتيجة كبيرة قبل أن ينهي الحال مع قريش ، وما يزيد الفرقة عندهم أن الحرب كانت بين
الفريقين سجالاتاً فإن اتهم المسلمون بيد فرقة انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في
الحنديق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك

كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمّن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الإسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر . حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش في الإسلام ثبتت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإن الظفر ببیت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذي يعبد كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجا قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الإسلام عمّ من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبائع الرسول على الإسلام وفي مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أبأها عليهم وأشياء أعطاهم ليأبأها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير في دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أو ثأنهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أباسفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سنأ لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاماً ومن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطار بن حاجب بن زرارة والاقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد . وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى في خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينياً ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفتخر - وأولها

نحن السكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريره تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوم أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وأبي إن هذا الرجل لمؤق له لخطيبه أخطب
من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم
أسلوا وأجازهم عليه السلام

ومن وفد من قيس : بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر
قالوا لابن الطفيل يا عامر إن الناس قد أسلوا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن
لا أتهى حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار اليها مضمرا
غذرا فلم يفز يرغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بني سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام برثمة وكان رجلا جلدا أشعر
ذا غد يرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبدالمطلب فقال عليه
السلام أنا ابن عبدالمطلب قال أحمد قال نعم قال يا ابن عبدالمطلب إنى سأتلك ومغاظ
عليك فى المسئلة فلا تجدن على فى نفسك قال لا أجد فى نفسى فسل عما بدالك قال أنشدك
الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آله بعثك اليها رسولا ؟ قال
اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ولا نشرك
به شيئا وأن نخضع هذه الأنداد التى كان آبؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال
فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال اللهم نعم ثم جعل
يذكر فرائض الإسلام فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها
حتى إذا فرغ قال فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وسأؤدى
هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ؛ ثم خرج حتى أتى قومه
فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما بعد أن عليهم
الإسلام وشرائعه

ومن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان
نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالإسلام

ومن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيلة بن حنيفة الذي لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلوا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلة وأدعى النبوة وصار يسجد لهم أسجاء يحاكي بها القرآن ومن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام في زيد ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيت دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فبدأ وأرضين معه ، ثم وفد عليه من طيء عدى بن جاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته ثم أقبل عليه وفود من مراد وزيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حير بإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قبل ذي رعين ومغافروهمدان وبعث إليه زرعة ذويزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتابا يبين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس في الدين

ومن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأنتى سلم لربي أعظمى ومقامى

ثم قدم عليه وفد بنو الحارث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفرق ولا نبدا أحدا بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وأفدأ عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذوالمشار المكنى بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجا حتى كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة هشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنه كان في وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الفارات ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة «الاهراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أثنى على آخرين منهم فقال «ومن الاهراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم»

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعائه إلى الملوك ورؤساء الأمم إلى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الأزمنة وتلك الحكومات لا بد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حرية إذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختر دحية بن خليفة الكلبي رسولاً إلى ملك الروم وكتب له كتاباً هذائمه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتلك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الاكارين عليك)

ونقل هنا مارواه ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب قال كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لانجد أمناً فخرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزاة فقدمتاها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم . وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حصص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردّ عليه ماورد ليصلى في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه وأشراف الروم أصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه إلى السماء فقال له بطارقه والله لقد أصبحت أيها

الملك الغداة مهموما قال أجل رأيت في هذه الليلة أن ملك الحثان ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختن لإيهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسرح من هذا اللهم فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشام والإبل يحدث عن أمر حدث بيلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان بيلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جزدريه فإذا هو مختور فقال هرقل هذا والله الذي رأيت لاماتقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لي الشام ظهراً وبطاحتي تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال أبوسفیان فوالله إننا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أنتم من رعد هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحما قال أبوسفیان أنا فقال ادنه ادنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا عليّ ولكني كنت امرأ سيدا أنكرتم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذته أن يحفظوا عليّ ذلك ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى لجملت أزهد له شأنه وأصغر له أمره أقول له أيها الملك ما يهملك من أمره إن شأنه دون ما يملكك لجمل لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئني عما سألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطانا نسبنا قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه لرياء فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فأخبرني عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الأستان والشرف من قومهم فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرني عن تبعه أيحبه ويلزمه أم بقلية ويفارقه قلت ماتمه رجل ففارقه قال فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئا لما سألتني عنه أغمره فيه غير ما قلت لا ونحن منه في هدنة ولا أمن

غدره فوالله ما التفت إليهم ثم كثر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فرعمت أنه محض من أوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فرعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فرعمت أن لا وسألتك هل أتباعه فرعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان وسألتك عن يتبعه أحبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه فرعمت أن لا يتبعه أحد يفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فرعمت أن لا فلئن كنت صدقتني ليغلبني على ماتحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقامت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي على الأخرى وأقول أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام . وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقه وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولمس رأي فقورهم قال إنما قلت ما قلت لأختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة. كأنهم أرادوا أن يسأصلوا الأمر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث ابن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بي إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني أنا سائر إليه ولم يسلم

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب بدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفر أ ومن معه من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفر أ وأجاب إلى الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى الله عليه بالمدينة

وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم الجحوس) فزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه

وسلم قال مزق الله ما لك ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلد بن فليأتيا نى به فاختر باذان رجلين من عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن يصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبي صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاہ ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتتعلق معي وقالوا قولنا تهديدا في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحي فأخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا منك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولاله إن ديني وساطاتي سيبلغ ما بلغ كسرى ويقتضى إلى منتهى الخف والحافر وقولاله إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وما سكتك على قومه من الأبناء فخرجوا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك فلا تمجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء

وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعث وهو الذى بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى وبعث العلاء ابن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جعفر وأخيه عباد الأزديين بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدهوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سببا في إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفي غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته - ختام القرآن - الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الإسلامية على يدي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج إلى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة - حينما أخبرها بأمره أول مرة - ما كان الله ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الأخلاق الفاضلة في الداعي ملاك أمره كانه لا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب ، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل اليها

الانظافة الظاهرة - مما يروى عنه عليه السلام : بنى الدين على النظافة ، وكان قد خضع من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر في طريق في تبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصانح المصانح فيظل يومه يجد ريحها العقل والذكاء - لامرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم

ومن تأمل تديره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلاء ما أفاده من العلم وقزره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهية ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه - إلى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلم أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم السنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها

ويحاورها بلسانها ليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع
ذى المشعار الحمداني وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين
في المأثور من كلامه الجامع ومنه ما لا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله
(لاخير في محبة من لا يرى لك ماترى له - الناس معادن - ماهلك امرؤ عرف قدره
المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم - رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فلم
إن أحبكم إلىّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً
الذين يآلفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله - اتق الله حيثما كنت
وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن - الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا
قليل من كثير . قال له أصحابه يوماً ما رأينا الذي هو أفصح منك قال وما يمنعني وإنما
أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى أما أفصح العرب يبدأني من
قريش ونشأت في بني سعد لجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ
الحاضرة ورواق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي والحلم والاحتمال والعفو
هند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال (خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي
من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)
وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن
عزم الأمور) ولاخفاء بما يؤثر من حله واحتماله . كل حلیم قد عرفت منزلة وحفظت
عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلاً
قالت عائشة ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط إلا اختار أيسرهما
ما لم يكن إثمًا فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا إراحتك حرمة
الله فينتقم لله بها . ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لودعوت عليهم فقال إني لم
أبعث لعناً ولكني داعياً ورحمة الله بهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . فلم يقتصر على
السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له
الرجل اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله
ووعظ نفسه وذكراها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل
ونهى من أراد من أصحابه قتله . لم يؤخذ عبد الله بن أبيّ وأشباهه من المناقذين بمعظم ما نقل عنهم

في جهته قولا وفعل بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا تلتأيتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حله وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأني عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفـره الله عليهم وحكمه فيهم ما زاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا الجود والكرم - كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه . قال جابر : ما سئل عليه السلام عن شيء فقال لا . وقال ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن أنس أن رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة وأعطى غيره واحد مئة من الإبل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء . ولكن اتبع عليّ فإذا جاء ما شيء قضينا فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فـكره النبي ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقل لا فتيسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة - كان عليه السلام منهما بالمكان الذي لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكفا والابطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزعزع وما شجاع إلا وقد أحصيت له فترة وحفظت عنه جولة سواء . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول أنا النبي لا كذب . أما ابن عبدالمطلب : فما روى أحد يومئذ كان أشد منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا الله ولم يقم لغضبه شيء وقال على كفا إذا حمى البأس واحترت الحديق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فأنطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراهوا

الحياء والإغضاء - كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه

في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله . وروى أنه كان من حياته لا يثبت بصره في وجه أحد وأنه يكنى عما اضطره الكلام إليه بما يكره .

حسن العشرة والادب ربسط الخلق مع أصناف الخلق - قال علي في وصفه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قُرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس اصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فأبيت فقال إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرم ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد منهم بشره ولا خافه ، يتفقد أصحابه ويعطى كل جلساته نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا خاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه وكان يحيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ! وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويحيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي ويكنى أصحابه ويدهوم بأحب أسمائهم تكملة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بإتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة - وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) . روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت إليك يا أعرابي قال الأعرابي لا ولا أجملت . فنضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك فلما كان العشي جاء فقال عليه السلام إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى كذلك ؟ قال الأعرابي نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزلها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإنني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشدعائها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبي فيتجاوز في صلاته

الوقاء وحسن العهد وصلة الرحم - قال عبدالله بن أبي الحساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبعيت له بقية فوعده أن آتية بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه فقال يا فتى لقد شفقت علي أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك . وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فوش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكان يصل ذو رحمه من غير أن يؤثرهم علي من هو أفضل منهم وقال إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحماً مائة سأبلاها ببلالها ولما قدم وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم . وكان يبعث إلى ثوية مولاة أبي لُب مرصعته بصلة وكسوة فللمامات سأل هل بقي من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعا وأقلهم كبرا ، عن أبي أمانة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويحبب دهوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيحبب و—ج على رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال اللهم اجعله حبا لأرباء فيه ولا سمعة . هذا وقد أهدى في حجه ذلك مائة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كادت تمس قادمته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لا تفضلوني على يونس بن متى ولا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروني على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة فقال له هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللمجة — كان عليه السلام آمن الناس وأءلمهم وأعفهم وأصدقهم لمجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الإسلام وروى عن علي أن أبا جهل قال له إننا لانكذبك ولكنك تكذب بما جئت به وفي ذلك قال الكتاب (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمون بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ! لا والله ما هو بساحر . وفي حديث علي في وصفه أصدق الناس لمجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحدا ولا يقرف أحدا ولا يصدق أحدا على أحد أى لا يسمع رشاية الواشين

وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه وكان كثير السكوت لا ينكم في غير حاجة يعرض عن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جالساؤه كأنما على رؤسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلي بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثى عليه الكتاب فقال مخاطباً له (وإنك لعل خلق عظيم) . وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحببه إلى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا مناصرين موازين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبت التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلاً عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوي

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها ، وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الأبناء فلم يعيش منهم أحد فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكُن أربعاً زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة - فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة وما لافلسا رأى الرسول القلادة : رق لها رقعة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوها لأسيرها وتردوها عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فرد النبي صلى الله عليه وسلم إليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها علي بن أبي طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعدهم خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بكل التزوج بأكثر من أربع

زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهن

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنان توفيتا في حياته إحداهما خديجة واثنان لم يدخل بهما وهما أسماء وهن

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بني عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكراً ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبني عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع وفي النفس شيء من تقدير هذه السن .

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي

(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش

(٥) وهؤلاء الخمس كلهن من قريش يضاف إليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من

هذه البطون - عبد مناف - أسد بن عبد العزى - مخزوم بن يقظة - تيم بن مرة - عدى بن كعب - عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمه ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته

وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذي كان معتبراً ابناً للبي صلى الله عليه وسلم

وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبني فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم

الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأن عمله

هذا يخالف ما طبقت عليه عادة العرب فأخفى في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك

كان هناك في الخطاب نوع شدة (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك

عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه

فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج

أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) فبينت الآية أنه كان يقول

لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب أن يفارقها

- وتخفى في نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو

الذي أبدته الآية - وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه - تخشى الناس أن يعيروك

فيقولون تزوج زوج ابنه - ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً

مزوجاتها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد . واقد هدم قاعدة النبي قولاً كما هدمها
فملاً فقال (ادعوم لأبائهم هو أقسط عند الله) وقال (ما كان محمد أباً أحد من
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهى التى عتق بسبب
زواجها من كان أسر أو سبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبي
رهم بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤى

(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن
أبي الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتي توفى عنهن .

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم
المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب
ابن عبد مناف وهذه توفيت في حياته

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج هن الرسول وبنى هن منهن ست من قريش وخمس
من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يكن بينهن . وتسرى بمارية القبطية التى أهداها له المقوقس فأولدها
ابنه إبراهيم الذى توفى صغيراً بالمدينة في حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين
سمي من بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأى في أن يجمع في نساء من
قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان
عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة
وهو بمكة أكبر مساعداً له ومبداً له أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة
صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبنى إسرائيل وقد
كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية
وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت
حياته منهن كمأثشة فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجردون في سورة
الأحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ختام القرآن

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى في يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبته وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر (راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى في تلك السنة)

الوفاة

في أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتداء عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحى فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يا معشر المهاجرين استوصوا بأل أنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ولهم كانوا عيتى التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم) وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً أقدمت ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بني ساعدة يأترون فيمن يخلفه حتى يبيع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قيصره وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له لحد في الموضع الذي مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها وكانت سنة عليه السلام ثلاثاً وستين سنة قرية

المحاضرة الثامنة عشر

- الخلافة -

الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لأمته (الأولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي اخبر ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماما للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم بوجههم إلى الخير ويبتعدون عن الشر وإليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدا بها الوقت المناسب لها والوظيفة الثانية هي التي اختصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بدأ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين : ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الأول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثاني) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قریش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك قسرتان (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه علي وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز علي من بينهم

بسبقة إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث

رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإتهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التي قاوا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمر المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وإيس من قريش وإنما هو رجل من تميم وهو لاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى مافى الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهي (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفا من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسه عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسه عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش. ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون إستنتاجه أن السر في تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما وبني على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على المال والحكم في كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصية المجتمعة

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواء لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك في حديث مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي وآه لنفسه أذعن لرأى الجمهور

مكث الرأي الأوسط سائداً والآخر خامداً لا يجد له محركاً حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلامية دعاة له يذهبون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الإحساس فسرعان مات به وقد كان تنبه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه قام في وجهه نصف الأمة قادماً إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها إقرار الأمر في نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التعميص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وإيس من بني هاشم عادت فكرة الشيعة إلى الخرد ولكن السيوف وإن تكن تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الأمل وتكن حيناً انتظاراً للمستقبل مازال أبناء علي يرون هذا الحق لهم إرثاً لا ينازعهم فيه إلا ظالم وتتنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتشيلاً إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لأنه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويكون منها العيون فما كان أكثر ما يقولونه من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معفر أهدمته بكر بلاه بعد أن أذيق من العطش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده من خرجوا على بني أمية حتى ينفاد الناس إلى من يدعهم للقيام إلى ردة الحق لأهله لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بني علي وبني العباس في استحقاق الخلافة بل كان بنوع علي يرون الحق لهم خالصاً لما لا يهيم من الامتيازات الكثيرة ولكن بني العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الأول هم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس إليهم سرّاً في دولة بني أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراساني فتم لهم الأمر ورد إليهم الخلافة بعد أن أسقط بني أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا

من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنفسه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى علي وأهل بيته أكثر من توجهها إلى بني العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيت العلوي والعباسي ، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأفسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصا في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون علي بن العباس كما كانوا يخرجون علي بن أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لاتناها قوة العباسيين ومن بقى منهم بالشرق سكت على ما في نفسه

ذهب الفاروق إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعائهم فأسسوا بها دولة علوية لها ير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرها من سياقي ذكرهم بعد والباقيون بالشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم في السر حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سببا من أسباب سقوط الدولة العباسية فإن ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء النضر إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك في الممالك الإسلامية - لمصر وملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها المهد إليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين شكل الانتخاب لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا تلك الأوامر العامة التي تناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا لبعض نصاب تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا

الامر المسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولولم يكن الامر كذلك لماهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولتنظر ما صار عليه المسلمون في ذلك وهامى طرائقهم

(١) الطريقة الأولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبا بكر - بعد حوار وجدال - ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة في البت - حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحدهم قريش يتطالع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه في وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهى الأمر بسرعة فمضى إلى أبي بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عنبيعة أبي بكر كانت فلفة وفي الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لباعيت فلانا : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيعة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا أنها سفت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده الخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحزبية في انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحسّ بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاخترسته من كبار الصحابة ومن يرى أنه لا يتطالع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها

ولم لا اعتبر خارجاً يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذي فيه عبد الرحمن ابن صوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبثاً حسناً ولكننا لم نر في مستقبل الأمة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها : لا يشكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن للقصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبوا الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسباً بأن كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً أم الأمة بأسرها ؟ أم هم أفراد مخصصون ؟ وإن كانوا مخصصين فمن هم ؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أم ولاية الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة ؟ كل ذلك لم يبين فالتطاع للخلافة يجد مجالاً واسعاً للتأويل كما حصل عند استغلاف عليّ . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ايس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن في بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز والطريقة الثالثة - في حقيقة الأمر - كالثانية إذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور عليّ قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة - وحدهم - هم الذين يقتضى إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد في الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى : كان ممن يتربص بالخلافة ويرى نفسه لها أملاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لأنبيعة عليّ ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين

الطرفين في سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا إلى شيء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم اتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبه وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكيم لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصر في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للتنازهين خصما ثالثا قوى الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين مناديين بشعار اتخذوه لهم وهو لاحكم إلا الله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره ولما كان على هر الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطروها الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفهم كفر فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يرضوا لأمرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تمرق غيرهم وطاردتهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة إلا لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والعن الحاصدة انتهى أمر على واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعته على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال أن أحدهما تعداها إلا إن سرنا على رأى من يقول إن علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأ كد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فن درنه في ولاية العهد على أن الخليفة هو الذي يعينه كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر إلا أن بينهما فرقا هو أن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلى ولده يزيد ولكنه امتاز

في عهده بأن طلب من ولاية الأمصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاية إلا من لهم هوى في بقاء الأمر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الأمر ، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية المهدي إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد ، من كبار الصحابة من قريش ولهم فقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك للعبء في وسط هذه الظلمات الخالكة فاعتزل وترك حبل الامة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عمده بالخلافة من بعده لاثني من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد المطلب وعبد العزيز وهي أول مرة ولى العهد فيها اثنان ^(١)

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزاع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا بهلاك الأول وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذي جعل ولى عهد له فيجتهد في نزعه وإقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بني أمية جميعاً وولى يزيد أخاه هشاماً ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنقيصاً على الوليد حتى ساءت أخلاقه وولى السفاح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى آخره وقدم المهدي . وولى المهدي ابنه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل وولى الرشيد بنيه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعلم مما أصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة في بني أمية حتى انقضت دولتهم وجاءت خلافة بني العباس فسارت على هذا النمط إلا أنه في عهد الضعف الذي استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير إلى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم في مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بني العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثماني وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الإسلامية التي كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره في عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ومع هذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك في بيتهم أكثر مما حفظه في أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوي فإنه كان منظورا فيه إلى الوراثية فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقطها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسموا عليا ومن يليه الأئمة وكانوا اثني عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فقال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقا

لم يكن يحل الخلاف في زمن من الأزمان إلا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظافرا ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسمى في جمع الكلمة على قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطالعين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل إلينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الإمام أم هو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية ؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الإسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطي وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة (٣) شروط الإمام وقد عدتوا منها شروطا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والمهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة (٣) ما ثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافا للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك أمام بيعة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولأى شيء يكون ذلك ؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على ؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٦) ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟

وكانت هذه المناقشات مع حداثتها وغوصها على ممان جميلة شريفة في بعض الأحيان عديدة الجدوى من الوجهة العملية لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأعلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأوائك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون باللائك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم والخلاصة : أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ما هي عليه من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدفع عنه ، سببا لاكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ماسيردها لكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلبا يخلو منها من سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

الحاضرة التاسعة عشر

انتخاب ابى بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبى بكر —
أخبار الردة

انتخاب أبى بكر

كانت الأنصار منقسمة إلى شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عباد من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقيقة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الأنصار في تلك السقيفة أو سهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً إلى اختيار سعد بن عباد فإن سعداً خطب فيهم مبدياً ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغي أن يبازعهم في هذا الأمر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فاذا نقول لهم ؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبابكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه في نفسه ليقوله في هذا الموقف فقال له أبوبكر على رسلك وكان أبوبكر رجلاً وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل سبق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الأنصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثره عن الرسول عليه السلام من قوله (الائمة من قريش) ثم قال فحقن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور ، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم بالخزرج فقال يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس فيكم وظلمكم وإن يجترئ مجترئ على أخلاقكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون

ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبي هؤلاء إلا ما سمعتم فذا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيات
لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانياً فقال يا معشر الانصار املكوا على
أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذياها^(١)
المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لتعيدنها جذوة فكان بينه وبين عمر حوار
ثم قال أبو عبيدة يا معشر الانصار إنكم أول من نصر وأزرفلاتكونوا أول من بدل وغير
فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الانصار إنا والله
لئن كنا أولى فصلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة
نبينا والكذب لا نفلسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا
عرضاً فإن الله ولى المنة علينا بذلك ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله
لا يراقى الله أنازهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوه ولا تنازعوه فقال أبو بكر هذا
عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقال لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك
أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل
دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لتبايعك فدعمر يده
إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عقت أنفس
على ابن عمك الامارة ؟ قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوماً جعله الله لهم
ولم أرأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير
سعد بن عباد قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها
الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً
أبدأ قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه فأنكسر على سعد وعلى الخزرج
ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبائعون أبا بكر حتى كادوا
يطؤون سعد بن عباد وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على
ابن أبي طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله
صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحكك به والعذيق تصغير العذق وهو النخلة

وترجيها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه

كلهم إذ ذاك في المدينة ، ولم يزل على بن أبي طالب ممتعاً من مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجة وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استكرو جوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل إلى أبي بكر أن اتذا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي ؟ والله لا يئذنيهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا تنفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكك استبددت علينا بالامر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقربتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقربة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتي وبعد أن أتم كلامه قال علي لأبي بكر موعده العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به ثم استغفر علي وتشهد فاعظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فعله الله به ولكنا كنا نرى لنا في الامر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا فمر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى علي قريباً حينما راجع الامر بالمعروف

أول خطاب لأبي بكر

بعد أن تمت بيعته قام في الناس خطيباً ^(١) فقال أيها الناس قد وليت عليكم واست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت قوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والصغير فيكم قوى عندي حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وهذه الكلمة هي بحمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدق عن الحق وفي هذا ضمان لحريةهم في القول أعطاهم عهداً أن يعد فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهرون بها

مالاً أنفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم إجمالاً

ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه - حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منه - أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم
ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن أبي قحافة من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لستين من عام الفيل وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالاته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر وكان له في الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بداً من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب إخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج في الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بني غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً - وتزوج في الإسلام أيضاً حبيبة بنت خازجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم - فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث

اخلاق أبي بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما

ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أى بكر فإننا نجد أظهر أخلاقه

صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان فى الأمر على قدر ما يتبها له من طرق البحث ويستعين بأراء غيره إن كان شوريا فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شئ عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صدده حاول أن يفتح له منها طريقا : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثير وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثير وهذا الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمان لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان مترددا فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ما ظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، هيا بعثا ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه فى مؤتة وكان فى هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبوبع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلهم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الأمر أو أخرج البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمرا حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم تكلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضبا شديدا وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر ١١٢ واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلعينه وقال عذمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضرورى وجوده بالمدينة لعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بأبقائه بل قال لأسامة إن

رأيت أن تعينى بعمر فافعل فأذن له . وهذا مقام كبير فى احترام ذى السلطان فى سلطانه وفى الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوى حيث رغب أبوبكر أن ينفذ تماماً واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه . ولما ودع أبوبكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهى :

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم باقية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواماً قد فحشوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخزقوهم بالسيف خنقاً يدفعها باسم الله (١) فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاة وأخاهم -م وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث معيذاً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لولم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل الغوية ! ومما يظهر صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله فى سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) فهذه

(١) فى لسان العرب . وفى الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة - وستجرون آخرين . للشيطان فى رؤوسهم مفاحص فافلقوها بالسوف أى أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما استوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا انساناً بشدة الغنى والاهتمام فى الشر قالوا قد فرخ الشيطان فى رأسه وعشش . وفى حديث أبى بكر وستجد قوماً فحشوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحشوا عنه بالسيف وفى الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهى مجاثمها

كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدهون إلى أنفسهم مدهين أنهم أنبياء فتبعوا دعوته وبذلك كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المنتهين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعمل به من هذا الانتفاض الذي كاد يكون في عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذل كل شيء .

فلما جاءت الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذيان قد اجتمعوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذيان فقال له المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فأبى أن تعصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فأبعث رجلاً فإن أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسى فخرج في تعبيته حتى نزل على أهل الريزة فلابرق فاقتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الخطيئة الشاعراً سيراً وأقام أبو بكر بالابرق أياماً ، وقد غاب بنى ذيان على البلاد وحامها لخيول المسلمين وأرعى سائر الريزة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذي القصة قتل بهم وذو القصة على يريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم أحد عشر لواءً لأحد عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدي ببراخنة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلة باليمامة (٣) ووجهه في أثره شرحبيل بن حسنة (٤) المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء ومعاونة الأبناء (٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان (٦) عرجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه في عمله (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن

(٧) العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حاجر ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة (١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً) أرسله إليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال : (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً) وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبق على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وإن يسي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فإن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم .

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن ينق الله ما استطاع في أمر كله سره وعلايته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرؤا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظروهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من

كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسرى به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والمساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولثلاً يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول طليحة ومالك بن نويرة .

كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمه علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس البوة ليكون له من الشأ ما رأى لبني قريش فدعا إلى ذلك قومه من بني أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطمان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببراخه وهو ماء اطبيء بارض نجد .

وكان بالمدينة عدى بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب إلى قومه فاذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم في الذروة ، والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببراخه منا فإننا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهم فاستقبل عدى خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثاً يجتمع لك ... مقاتل تضرب بهم عدوك : ففعل خالد ، ثم عاد عدى إلى قومه ، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من براخه كالمردد لهم ، ثم راجعوا الإسلام ، فعاد إلى خالد وأحبره ، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتى براخه ، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس عيينة بن حصص الفزاري بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له : ألا ترى ما يصنع بنا فهل جاءك ذوالنون بشيء قال نعم قد جاءني وقال إنك يوماً ستلقاه ليس لك له ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فزاره هذا كذاب وولى عن عسكره فاهزم الناس وهرب طليحة وانضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أبت الكاذب على الله حين

زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياماً فإن الرغبة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الإسلام كله فلا تعنيف على بيعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض ويدينام على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بذات الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى المواجهة فإدعها وثناها من غزو أبي بكر وحماها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع ابن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل ما دعيت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يريدون فسجدت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوط في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بني تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلة الحنفى فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها ويدينام على ذلك إذ سمعوا بقدرم خالد بن الوليد في جيوشه فتنفرت جموعها وعادت إلى الجزيرة. وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتخير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندماً ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطح لم يجد أحداً أثبت سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش منهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه يخالفون لأمر الخليفة وبما أكبر التهمة أن خالد تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر إن في سيف خالد

رهقاً فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال به يا عمر تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد وودي مالكا وبخذلان بني يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنو حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوما لا يمدلون ، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بنو حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعمل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلة كبيرة جداً تباع أربعين ألفاً لأن أكثرها اتبعه عصية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول نذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالا شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلة واشترك في قتله وحشى قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتتموا بها فصالحه عنهم جماعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقوا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتليهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شرط الصلح فوفي لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبي بكر فقال لهم حينئذ قدموا عليه ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل قالوا يا خليفة رسول الله لقد كان الذي بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم

سألم عن بعض أجماع مسيلة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا برقاين يذهب بكم : وأقام خالد بعد فراغ الأمر في واد من أودية اليمامة يقال له الوبر اليمن والأسود العنسي

ولما أسلم أهل اليمن ولي عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذان الذي كان عاملاً لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء وعين ولاية آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً ينتقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول . ثم قام رجلاً من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبمه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها العشر من مخرجه ودخل معه هوام مذبح ثم جاء صنعاء وقاتل عاملاً شهراً واستولى عليها وهزم الأبناء الخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن في أمره قسمين قسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتاباً إلى يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل في أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وإن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة وديناً . وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس ابن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً فقاتحه الأبناء في أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهّدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوط طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من رؤس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدة وما

زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت
زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمر بن معد يكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت
وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا
كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح
البحرين والحطيم

كان عليه السلام قد ولي على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس
وبكر بن ربيعة فمات المنذر في الشهر الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا
نصيحة الجارود بن المعلّى حيث جمعهم فقال ياه عشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر
فأخبروني إن علمتم وما تجيبوني إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا
نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأما أشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله
وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم . أما بكر فإنها تمت على ردتها يقودها إلى
ذلك الحطيم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك
حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمي أميراً على الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد
بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال في مسلة نبي حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام
طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطيم فغلبهم المسلمون وقتل الحطيم وضرب الإسلام
بجمرانه في البحرين وكتب العلاء إلى أبي بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من
ربيعة إلى الإسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات
في جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تززعهم
الكرارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظلك بهذه النار التي هاجت في جميع
أنحاء الجزيرة حينما شمرت بفتح الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاها قبل أن
تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحارب أدنى بدء في هذا الأمر ولكن
إذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتب من رؤساء الجند

والإهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفساً أكبر نفس
عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة ومن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد
قلبا نعم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقته وذهب إلى أبي بكر
يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضباً شديداً ولم يكن هناك موادة في رجوعه إلى خالد
ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لأى سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه
العظيم وطول صحبته وحاول عمران يوقع أبو بكر بخالد مع جسامته ذنبه فلم يفعل لأنه خاف
الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إننا نقول في ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده
ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذى عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الدهول
على أفئدة المسلمين كافة حتى أقوامهم شكيمة وأشدّهم قلباً

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد أبي بكر —
غزوة الفرس — غزوة الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصعرائها
ومفاوزها ووديانها قوام متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد
والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك
أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم
تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً
والمسود سيداً

كان يحاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من
قديم الأعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الآكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرق والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الآكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن نابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر دونهم ووجد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت في عهد اسكندر المقدوني وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاهها وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لمعهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذي أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام فرأى ذلك أمرا عظيما أن يدعو عبد من عبيده زعم ليكون خاضعا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلا بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيرا إلى أهل بيته فولى من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهر يزار مرابطا بجنده بشغور الروم فلما رأى أن ولي أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك قاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوما من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشمنسده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آذر ميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التي جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهزم من أصبه خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب أزدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشمنس ولكن لم يبق ملكا

إلا أياما وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم
الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تناصى دولة الفرس
في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها
أكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزلوا على تلك العظمة حتى
انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية
في زمن القيصر تيودتيوس الذي ولى أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين
ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذي ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨
وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامي
هرقل الذي كان قبل أن يتولى الملك واليا في أفريقية ثم خرج على الملك فوقاه فقتله
وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت
على يده سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع
بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تنهد في هذه البقاع وكانت
الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطئ
بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك
النهرين دجلة والفرات ومايسقيان من تلك الأراضي الخصبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الإسلامي ما حصل أولا من الحروب بين جنود
فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس
انتصارات متتابعة حتى أجعلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت
جنود الفرس توالى فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها
وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ثم أعادوا كراتهم
في عهد هرقل الذي خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب
المقدسة وأتلفوا كثيرا من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا
اسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة
لمبان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض) ثم قال مخبرا عن تكون

له العاقبة فقال (وهم من بعد غابهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وهذا الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلاً فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتنبأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقل فاتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس مذاقوه منهم قبلاً : ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فقال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى اورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي أرسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلى الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرده في ذلك الوقت اليهود من اورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف

هذا بحال حال تلك الدولتين لأول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بشخر الهند وهو الإبله وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو في شمال العراق وأمرهما أن يستنفر من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمترد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذارية قوله فيه أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلوم إلا نفسك فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء

بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة النجامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم إليه وهناك عبا جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلاحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيط وقد كانوا ضربوه مثلاً للخبث تراحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقامة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبا من موضع البصرة والبصرة لم تبني إذ ذاك كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينما هو قادم إذ بلغت هزيمة هرمز فتوقف بالمدار^(١) وعسكر به فسار خالد إليه على تعبئة فنقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الاندزرغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة^(٢) ثم اتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المنتصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبئة بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعتهم ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكنتهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا وهضى قائد الجيش في هزيمته حتى مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومه فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم بدأ على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس^(٣) وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

- (١) المدار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهي قصبة ميسان
(٢) وهي من الشمال من المدار من أرض كسكر (٣) قرية من قرى الأنبار

ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيثيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلى ينتهى إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصرأ كالحيرة: لما علم الأزدية مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيثيا لم أنه غير متروك فنهيا الحرب خالد رقم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأتقال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوائح فسأل عن السبب فأعلم به فتمجّل خالد نحو ابن الأزدية حتى لقيه هو وجنده على قم فرات باذقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرقا على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصروهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عامدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حديساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المسعة وإن لم يمنعمهم فلا شيء عليهم حتى يمنعمهم وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة^(١) وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢ : ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سببهم كرامة بذت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرهما فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحق رآنى في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأقتدى منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكى قالت فلك حكك فقال فاست لام شويل أن تقصتك عن ألف درهم فاستكثرت

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر

ذلك لتخذه ثم أتته بها ورجعت لأهلها قد سامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره فأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسا وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وباروسا جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة وإنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم قلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج^(١) إلى هرمز جرد^(٢) على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً : ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور : وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس ووسايتهم وصورة الأول - بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفزق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم في أرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة: وصورة الثاني - (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزابة فارس أما بعد فاسلخوا تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جشتم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس في ذلك الوقت في ارتباك داخلي بشأن من

(١) فلاليج السواد قرأها واحداً فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قرئتا من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهر سير وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى وكانت في الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن يبنوا أمرا خلافتهم فاختروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يحدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذ بن البندوان

ولما استقام لخدمته أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار (١) وقد تحصن أهلها وخذلوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصالح على أن يخليه ويأخذه بأمانه في جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والاموال شيء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزرقان بن بدر وقصد عين التمر (٢) وبها يومئذ مهران بن بهرام جويين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من الفرس وغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمرى لا تتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبئة يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبئة واقتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب في جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد في بيتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالد هذا الكتاب :

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة وهي على طرف البزبة

من خالد إلى عياض إياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المنتصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أئمن طائرا منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوبا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالككم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقتل في خروجه هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجردى بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لتجدتهم فناداهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بنى كلب لأنهم كانوا حلفاء نعيم فأجارهم عاصم بن عمرو النعمي وبعد أن أقام خالد قليلا عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك المعجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سربتين إلى الحصيد^(١) والخنافس فأرقت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيح وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالا ثم كانت له وقائع بالثي^(٢) والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعا وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشرأ وبعد ذلك أذن في الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجا معه عدة من أصحابه يمتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك ما لم يتأتى لدليل أوربان فسا توافى إلى الحيرة آخر جنده حتى أقام مع صاحب الساقة فتدما معا وخالدا وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجة إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبوبكر بذلك إلا بعد فكتب عليه ووافاه كتاب أبي بكر بصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذي أرسله إليه أبوبكر دسر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه

سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقره الزميل

فإنهم قد شجروا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجوع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة قائم يتمم الله لك ولا يدخلك عجب فخسر وتحذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء»

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣ وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش : اقتطع من بلاد المعجم حوض نهر الفرات من شمالى الابلّة إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات ومصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها وكان فى كل عمله فاتحاً لا مغيراً فإنه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبى الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرفقة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماءؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رافته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان ما يخرج طالباً رئيس القوم للبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غزوة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم علوه ما قاله الهيثم البكائى . قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يدكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتح العراق فإن أبا بكر فى أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التى يتولاهابعد

الفتح لجعل لعمر فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولابي عبيدة حمص ولشرحيل الاردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثون ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالامر هرقل وكان نازلاً بمحصر وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأي ؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرب فيه لأحد من استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك ^(١) ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه . بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فدخلوا الواقصة ^(٢) وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو طيب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفندتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بجذائهم على طريقهم وليس الروم طريق إلا عليهم فصاؤوا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهر ربيع لا يقدر من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم للهيب وهو الواقصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب إلى خالد ليأحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حديثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبري ٢٤٠ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أي أن كل أمير يحترك جنوده مستقلاً

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الأردن

(٢) واد في أرض حوران

عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى لجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبه ، قالوا فهات فما الرأي قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم الذي كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيد عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلدرا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خنادقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلدرا فلتتعاود الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم فأمروه فمضى خالد الجيش تعبياً لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيساً يأتى بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف وجعل للجيش قاصداً يذكركم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لو ددت أن الأشقر براء من توجيه وأهم أضعفوا في العدد (الأشقر فرسه)

وخرجت الروم في تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعترع بن عمر ففعلوا وكان القعترع يرتجز :

يالتقى القاك في الطراد قبل اعتزام الجحفل الورد وانت في حلبتك الورد
يرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على عكرمة أحامى

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم الموسيقى في تشجيع القلوب
نشب القتال والتحم الناس وقطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد
خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق
المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم وخرجت خيلهم
تشتد بهم في الصحراء ولما رأها المسلمين كذلك أفرجوا لها ولم يخرجوها
فذهبت فنفترقت في البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكانت هدم بهم حائط
فاقتحموا في خندقهم فاقنحمه عليهم فعمدوا إلى الواقصة من ررائهم حتى هوى فيها
كثير منهم فتهافت فيها على ما يقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمركة من
الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو
في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح الممل في الثبات والصبر منهم
عكرمة بن أبى جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله في كل موطن وأقر اليوم ثم
ينادى من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا
جميعاً قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا إلامن
برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمره بن
عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء
ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لانتشهد (يريد عمر) وقال النساء في ذلك اليوم
في جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان
ولما بلغ خبر هذه الموقعة هزقل واهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو
دون حصص ارتحل لجمل حصص يندوبين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك ياسوريا
سلاما لالقاء بعده

في أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب
وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاماً مكانه فأخذ خالد الكتاب

وأُسرَّه إلى أبي عبيدة ولم يذعه لثلاثين به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم قوله : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلى من عمر . والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبيض إلى من أبي بكر ثم ألزمني حبه جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير . ودرَّب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون أن ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً في فوزهم هذا الفوز السريع : كان يمكن أن يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظماً معبئاً أعظم تعباً فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثراً برأى من الأول ثقته بأن العاقبة له لم يقرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة : وهذه الثقة في قلبه بنزلة مدد من الله يؤيده الثاني أنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسينين إماموت بعده سعادة وإما فوز فيه نحر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ما وقفوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر : وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي . يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا .

به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

إدارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة . والفصل في القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأن أبا بكر لم يعين قضاة . يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهد :

- (١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي ولي فتحها بعد الرقة
- (٤) حضرموت ووالها زياد بن ليث (٥) خولان ووالها يعلى بن أمية
- (٦) زيدور مع ووالها أبو موسى الأشعري (٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل
- (٨) نجران ووالها جرير بن عبدالله البجلي (٩) جرش ووالها عبدالله بن ثور
- (١٠) البحرين ووالها العلاء بن الحضرمي

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاه الأمر فيها ولم يكن لأبي بكر وزير وإنما كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة أمينا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سورة كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الرقة وكان قد قل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلاً تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصاحب أهول الناس التجارة وما يصالحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لي إلى ما يصالحهم فترك التجارة واستدفع من مال المسلمين ما يصاحبه ويصاحب عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذي فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم (— بالتقريب ١٢٨ جنبها مصرية) وما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لأصيب من هذا المال شيئاً وإن أرضى التي يمكن كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده . فن هذا يفهم أن المبدأ الذي اختطه أبو بكر هو أن الخليفة

لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسه وكان هذا المأخوذ فيه شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده إلى بيت المال لإرزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجتمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتل وغير ما ينقله رئيس الجند المتأزين وكان أبو بكر يسوى في العطاء لا يفضل أحداً على أحد لإرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصداقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال أرزاقهم ويرزق ما بقي على من عينوا في الكتاب لمصارف الزكاة وفاة أبي بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموراً ١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلاً إلى الجهة الشرقية

الحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر - ترجمته - أول خطاب له - الفتوح في بلاد الفرس بدء القادسية

٢ - عمر بن الخطاب

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحسن بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفته قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائماً بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم

وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن هوف وقال أخبرني عن عمر فقال يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غاظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقا ولو أفضى الأمر إليه ترك كثيرا مما هو عليه ويأبأ بمحمد قدر مقلته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراي الرضا عنه وإذا كنت له أراي الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذلك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا بلي من أموركم شيئا ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وإني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) - ثم ألقى عليه فكتب عثمان - (فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم أكن خيرا) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افلتت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأمله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس بمسكته فقال لهم أترضون بمن استخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس

سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن أوى وأمه حنمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والجدوة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما أشرف رسول الله ﷺ بالرسالة كانت سنة ٢٧ سنة ولما دعى إلى الإسلام لم يكن في بدء أمره مقتنعا بصحة الرسالة فخارب

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فأمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لمولانا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تشكله أمه فليقتني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد كلها فلم يتخاب عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمراً كبر الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضاء فكانه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحة أبي بكر الأمانة في الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده أما أنا فو رب الكعبة لأحملكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل الموافق الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهد فإنها كانت سائمة مطيعة إذا أمرت اتحرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يواجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدم مقسماً فقال أما أنا فو رب الكعبة لأحملكم على الطريق ويفهم بالبداية أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمز وجنده وتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها تخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يوى هذا فإن أنا مت فلا تفسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم حصية وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أتى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطربت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرامة عليهم . ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يجمعون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ولننا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجمة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فأمن وصديق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب لإخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تشكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمراً كبير الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضاء ففكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحة أبي بكر الأمانة في الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أتف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده أما أنا فو ربّ الكعبة لأحملكم على الطريق) والجمل ألا تف هو الجمل الذليل الموافق الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهدده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت اتعرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يواجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدم مقسماً فقال أما أنا فو ربّ الكعبة لأحملكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة أنهم زعم فيها بهمز وجنده وتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحررها ومعوثة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يوى هذا فإن أنامت فلا نمتين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم حصية وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقنا فاضطربت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرامة عليهم . ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجمة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعد الله سيروا فى الأرض

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

التي وهدمكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره وهولى أهله مواويث الامم أين عباد الله الصالحين - فكان أول منتدب المسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلا ن سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبغهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركمهم في الامر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف . فصار أبو عبيدة بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة - كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزره يدخت مملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائدا عاما للجند الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ما صنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام في التمارق ^(١) لما رأى ذلك المثني ضم إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار إلى التمارق فخارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد ما فعل الربيعي والمسلم القوم أنه الرئيس كله وافية بأعبيد فقال ماتروني فاعلا معاشر ربيعة أيؤهنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر ^(٢) لاجئين إلى نرسي فاجتمع إليه الجند الذين معه وقل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاء الدهاقين مسلمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم.

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق (٢) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحصر الحجاج واسطاً خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفيا وميسان ودست ميسان

بشيء يصيبه لا والله لا يأتى كل مما أقام الله عليهم إلا مثل ماياً كل أوساطهم لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كايان وهرضا ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة ^(١) ووضع البرج والعاقول فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا فعبير إليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فالج وترك الراى وعبر بالمسلمين فسارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد لجال المسلمين جولة ثم تموا عابها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فنهافتوا في الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقيل وحى المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا وأقاموا بالمروحة وهرب من الناس يشر كثير على وجوههم واقتضوا في أنفسهم واستحبوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنافة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكنا له فتنة وحصل فى هذه الواقعة غلطان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه عن العبور فلم ينتهوا الذى زاد تلك الغلظة تأييداً ما فعله ذلك الرجل لاحق عبد الله بن مرثد الثقفى من قطعه الجسر عند مارأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير ابن عبد الله البجلي فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدهم طلب منهم أن يسيروا إليه حتى يقابلوه على البويب ^(٢) وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى يخبره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبير المرس واقتلوا مع المسلمين وكان ذلك فى رمضان وقد أمر المثنى

(١) على شاطئ الفرات الغربى تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بالإفطار فأفطروا وكانت تعبئة الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلاً يستوفز ويستنتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو بمن فز يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل ققره بالرح وقال لأبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال إنى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اضطربوا صبراً جيلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمائة ألف وبما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإحراجه العدو قال لقد عجزت عجرة وفي الله شرها بمسابقة ليأهم إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فإنها كانت منى زلة لا ينبغي إحراح أحد إلا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب ^(١) بعد أن عمدهم لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبدث السرايا للإغارة وبما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فنادوهم فلم يلقوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق العرق وجعل عتية و فرات البكر يان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتغريق يذكرونهم يوما من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوما من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عيون في كل جيش فيكتب العين إلى عمر بما قال عتية و فرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراهما أنها قالا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحفظهما خلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل واعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيان الأعلى والأسفل من طسوج سورا

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيروز وهما عظيمي فارس والمستنقان في أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهتم أهل فارس وأطمعتهما فيهم عدوهم ولأنه لم يبلغ من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وإن تعرضا لها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لاجتماع أولئذان بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في كل نساء كسرى وسرا ربه عن عقب له يذنبن فبعد لاي وجدار جلا يدعى يزدجرد من ولد شهر يار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فلكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته وحينئذ سمي الجنود لكل مساحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمساخ والإبله . بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار^(٢) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق في المياه التي تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذاقار ونزل الناس بالجبل^(٣) وشراف^(٤) إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا يبحث يغيث بعضهم بعضا إن كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣ أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣ لا تدعو أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا لا تنبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كشيء إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فرافقه بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على الصنف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم قانضموا إلى المثنى

- (١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي على جادة الكوفة
- (٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط
- (٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينه وبين القرعا ١٦٠ ميلا
- (٤) بين واقصة والقرعا ومن شراف إلى واقصة ميلان

قلبا تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار^(١) فسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في أمانة عمر رديفاً والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنأدى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سروسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يحى رأي أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجره الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح والإعلاء رجلاً وندب جنداً آخر فنأدى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى علي وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن الله قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجمعاهم فيه إخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) وهذا الخطاب بين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الأساس لذلك النظام . ثم أجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأي أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي وكان في ذلك الجيش حدة الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيساً ولا شرف ولا ذا رأياً ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رامهم به فرامهم بوجوه الناس وغرهم

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية - فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال إذا انتهيت إلى زرود ^(١) فانزل بها فسار حتى إذا وصل إلى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بنى تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى فاؤا إلى فئة ثم يكون أعلم بسيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابي هذا فاعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب إلى بالذى يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر به فقدر الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرّاف فعرف على كل عشرة رجلاً وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلاً من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجلاً فولى على مقدماتها ومجنيباتها وساقها ومجرداتها وطلائعها وركبائها فكان أمراء التعبئة يلون الأمير ويليهام أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد روم القباطل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبئة وبأذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد : فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة هدم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً كؤودا لبحوره وفيوضه ودآدته ^(٢) إلا أن توقفوا

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة

(٢) الدأدىء ما اتسع من التلاع وهى مسايل الماء

غيضان فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة
بجموعهم ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهت
إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمآذتهم
ولما يريدونه من تلك الأصل وهو نزل رغب خصب حصين دونه قناطر وأنهار
ممتعة فتكون مسالحك على أبقائها ويكون الناس بين الحجر والمدرة على حافات
الحجر وحافات المدرة والجراخ بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك
أنهضتم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وخدمهم وخدمهم فإن أتم صبرتم
لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم
مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر
من أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها جبن وبها أجهل حتى يأتي الله
بالبفتح عليهم ويرد لكم الكرة. وكتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف فصار
سعد على تعبته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول فيه — واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي
يلي مصادمتكم فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به فله على بما هجمتم عليه
والذي استقر أمركم عليه نصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن
صفة كافي أنظر إليها واجمعي من أمركم على الجلية — فكتب إليه سعد بصفة البلدان
القادسية بين الخندق^(١) والعتيق وأن ما هن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاج^(٢)
إلى الحيرة بين طريقتين فأما أحدهما فعلى الظاهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى
الحوض^(٣) يطلع من سلكه على ما بين الخورتق^(٤) والحيرة وأن ما عن يمين القادسية
إلى الوجلة فيض من فيض مياهم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبل

(١) خندق سابور في بركة الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من
شرهم وأوله من هيت يشق طف الباذية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر
وبني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمساح ليكون مانعاً لأهل التادية من السوار
(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة
بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقي الفرات وغريه بساتين

إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذي أعتدوا المصادمتارستم في أمثال
له منهم فهم يحاولون إنفاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انفاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد
ماض وقضاء مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر في عافية - فكتب إليه
عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حاض به على الوفاء بالأمانة قوله له إني قد ألتقي
في روعي أنكم إذا لقيتم العدو همز متهم فاطرحوا الشك وآثروا الثقة عليه فان لاهب
أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرنه بإشارة أو لسان كان لا يدرى إلا عجمي ما كلبه
به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضعك الوفاء الوفاء فان الخطأ
بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم وإقبال
ربحهم واعلموا إني أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسبياً لتوهمهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونه
لحرب المسلمين فرضى بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب
أمر عمر فاختر من جنده قوما عليهم نجار ولهم آراء ونقرأ لهم منظر وعليهم مهابة
ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن
لهم ومعهم يزدجرد وزرأوه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال
لترجمانه سلهم ما جاء بهم ومادعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجمعناكم
وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد قد كثر تاريخ
إرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك ثم
أمرنا أن نبداً بمن يلينا من الأمم فدعوههم إلى الإنصاف فنحن ندهوكم إلى ديننا وهو
دين من الحسن وقبح القبيح كله فان أيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه
الجزاء فان أيتم فالمناجزة فان أجبتهم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقناكم عليه على
أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم
ومنعناكم وإلا قتلناكم فقال يزدجرد إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل
صدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم
لا تغزوكم فارس وتطعمون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وإن
كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم
وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم فسكت القوم فقام المخيرة بن زرارة الأسدي فقال

أيها الملك إن هؤلاء رموس العرب ووجوههم وهم أشرف وإنما يكرم الأشراف
الأشراف وبمعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس
كل ما أرسلوا به جمعه لك ولا كل ما تكلمت به أجاوبك عليه وقد أحسنوا ولا
يحسن بمثلهم إلا ذلك لجأوني لا كون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ما ذكرت
من سوء الحال فما كان أسوأ حالا مما وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل
الحنافس والجعلار والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهر
الارض ولا نلبس الارض ولا نلبس إلا ما غزلنا من اوبار الإبل وأشعار الغنم
ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدا ليدفن ابنته حية
كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله
إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خيرا من أرضنا وحسبه
خيرا من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرا في الحال التي
كان فيها أصدقا وأحبا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده
فقالوقدا وصدق ركذبنا وزادو نقصنا فلم يقل شيئا إلا كان قدذف الله في قلوبنا التصديق
له وأتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو
أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء
وكل شيء هالك إلا وجهي وأما خلقت كل شيء وإلى يصير كل شيء وإن رحمتي
أدركنكم فبعثت إليكم هذا الرجل لادلکم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من
عذابي ولا حلکم داری دار السلام فتشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من
تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبي فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه
عما تمنعون منه أنفسكم ومن أبي فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي
ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناواه فاختر إن شئت الجزية هن يد وأنت صاغر
وإن شئت فالسيف أو تسلم فتجني نفسك فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال
ما استقبلت إلا من كلني ولو كلني غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل
لقتلتكم لأشياء لكم عندي ثم قال اتنوني بوقر من تراب فاحلوه على أشرف هؤلاء ثم
سوقوه حتى ينجح من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم
حتى يدفنكم . يدفنه في خندق القادسية ويشكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى

أشغلكم في أنفسكم بأشد ما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا لخمלוه
وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً
وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن في تعبئة كبرى وعدد جنده ١٢٠
ألف عدا من تبهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى
أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم
على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً
وما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم
على سريرته فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى
قوما أسفه منكم إنا معشر العرب سراء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً
الصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن
تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم
ولكنكم دعوتكموني اليوم فقلت أن أمركم مضطرب وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم
على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين
لقد رمى بكلام لا يزال هيبنا ينزهون إليه قائل الله أولينا ما كان أحقهم حين كانوا
يصفرون أمر هذه الأمة

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكروه ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه
وبين المدائن متصلاً بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد دعياً
لجيشه را انظمت حمانه ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب الخيول
كانت به فكان مقيماً بأعلى القصر يشرف على الناس ويرى بالرقاع فيها الأمر والنهي
إلى خالد بن عرفة وهو أسفل منه وكان الصف بجانب القصر ثم قام في الناس الخطباء
فخطبوا وحشوا على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان
الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلواتهم كبر سعد تكبيراته
الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأثمروا القتال وبرز
غالب بن عبيد الله الأسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسامح ذات اللبان والبنان الواضح
أني سمام البطل المشايخ وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد لمست بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أني أمرؤ لا من يعينه السبب مثلي على ملك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإتها لما حل أصحابها عاقبتها الخيل ففرقت فكادت بحيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاقاً فأعانهم سعد بنى أسد وكان لهم في ذلك أعظم نفع ولرئيسهم طليحة الأسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم إلا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أهريت الفيلة من ركبائها عادت إلى مواقفها ففس من نى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم إرمات

وفي اليوم الثاني قتلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فندفونهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمرأباهييدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص تقوى بها المسلمون وكانوا قد جاؤا بالابل وجمالها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني مالقت جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفي اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حلق وفيلة الفرس. تفعل فعلها في الخيول فانتدب لا كبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رعيمة في عيني الفيل وقض رأسه فطرح ساقه وولى مشفره فنفضه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب في العتيق فقبضته الفيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا لياتهم فصار القعقاع في الناس

يقول لم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همه أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الحرب فبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتل رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهي درفش كايان ثم تتبعوا بقية المنزهين حتى أجلهم إلى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليته تسمى ليلة الهربر ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لامع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قباهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقتلوا المسلمين بمدة لم ير الراؤن مثل زمانها فلم يفهمهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد الفارسي وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يذوون بالقرآن إدا جئ عايهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يهزل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم). كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسلاً أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفي اليوم الذي ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدو وعمر يجرى وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل فهلاً أخبرتني رحمة الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخى فقرأ كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهداً ولم يقيم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علينا إلا أهل بانقيا وبسما وأهل اليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرههم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيه (إن أهل السواد جلوا لجأنا من أمسك بعهدك ولم يجلب

علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإننا في أرض رغبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزد غلبه إلا خيراً وإن من ادعى فصديق أو وفي بمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يحمل أمر من جلا إليهم فإن شأوا دعوم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخبروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول

(أما بعد فإن الله جلّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات لافي أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وإن روى لنا فهو أقوى وأطاماً للجرر وأقمع للباطل من الجور وإن روى شديداً فهو أنكش للكفر فن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم وأبلغوهم ما منهم) وكتب جواب الكتاب الثاني (أما من أقام ولم يحمل وليس لهم عهد فلم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) - فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم بما جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كن تم ولزم عهده إلا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكره وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبههم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فينا لمن أفاء الله عليه فهي والصواني الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر

السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والاموال - ولم يأت قسم ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لأنه كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل النىء من وثقوا به وترضوا عليه كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الابللة لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الابللة لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الابللة وهى مرفأ فارس على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيماً تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرو ودوذى قارو تلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادى إلى القادسية وكان كلاماً أبدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادى ورجب شيء العجب كل العجب بين جمادى ورجب أمر قضاء قد وجب

ينخبره من قد شجب تحت غبار ولجب

ثم إن سعداً ارتجل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموا من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية يبرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فخاربهم حرباً غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم بيا بل على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر. فأقام سعد بيا بل أياماً ثم سيرا المقدمة مع زهرة حتى وصل بهر سير وهى المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهر سير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهر سير شهرين ثم فتحوها بعد أن مركتها مقاتلة العدر وعبرت إلى المدائن القصى الشرقية فنزل سعد بهر سير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة

الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فإن الفرس كانوا قد ضموا إلى الشاطئ الثاني وكان سعد قد أعد فصيلة تحمي الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فمبار الجند كله خوفاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفاً أن يزدجر دينقل كل ما في المدائن من ذخائره لحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعبون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وصلى فيه صلاة الفتح وجعله سجداً وفيه تمائيل الجص رجال وخيل ولم يتمتع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المظام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثني عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجانب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم وعملاً أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالارض المزروعة والارض المبللة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلك ولما ورد الخس على عمر قسمه على مستحقه ثم قال أشيروا عليّ في هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك قز رأيك إلا ما كان من على فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعد في غدم يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحر به وولى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول على ماسقت دجلة والثاني على ماسق الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز -
غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها
واقعة جلولاء.

لما انتهى قل الفرس إلى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب
وإلى الجبال وفارس فتدامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبدا وهذا مكان يفرق
بيننا فهلوا فلجتمع للعرب به ولتقاتلهم فإن كان لنا فهو الذي نريد وإن كانت علينا
كنا قد قضينا الذي علينا وأبلىنا هذا فحصبوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها
 واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدم بالرجال
والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب لإلأطرقهم فأرسل سعد
بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشا أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبته
ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثني عشر ألفا حتى
نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم
ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في
سبيل ذلك حربا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الحرير وانتهت بتغلب المسلمين على
الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة
ذلك العدو الشديد أخذوا يمتة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم
أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة
يزدجرد بارح حلوان قاصدا إلى فزار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها
مرابطا لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجليل وكان من رأى عمر في ذلك
الوقت أن يقتصر على ما ملكه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين
السواد وبين الجبل سدا لا يخلصون إلينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد
وإني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال
كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم

فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلتني به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدرى منك فكيف لأقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبت إليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين ١١ وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت لحصرهم أربعين يوما تراخفوا فيها أربعة وعشرين زحفا في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا إليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا إلى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان^(١) فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء^(٢) يقودها عمر ابن مالك فافتتح في مسيره هيت^(٣) وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

- (١) كورة بها عدة مدن منها أريوجان عن يمين حلوان للفاصد إلى همدان
- (٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات
- (٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيرا فقال عمر (والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدعوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فأبعث سلمان وحذيفة راثنين فليرتاذا منزلا بریا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربى القرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبوا إلى سعد بالخبر فأبغضه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنيوا بيوتا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبني بالابن . جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدي وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها لجعل المناهج أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعا

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاخطوه ثم قام في وسطه رام شديد التزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبني في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت الأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنيوا لسعد بحماله داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذي بناه له فارسي كبنية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبت عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها وفي هذا العام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وإن نزلها المسلمون

سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيه وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان^(١) وماسبذان وقرقيساء والموصل^(٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل بينهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة^(٣)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداهما يقودها سهيل بن عدي لفتح الرقة والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بجمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحته ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فإنهم يفضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

-
- (١) في آخر حدود السواد ما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة
- (٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن الإسلامية الكبرى
- (٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين سجنار وواخا بور وماردين وآمدوميا فارقين والموصل وغير ذلك

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تناخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظماؤها وكان يغير على ما يبد المسلمون فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمدّه بخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذات ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الاهواز كلها وهرجان قذق (٢) ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القرة المرابطة خلاف في حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك انسق المسلمين جميع الاهواز إلى تستر فراساهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك هندي لمصدق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أن ظلمت الذمة المظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم إذا انصرفوا إلى رجالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بني فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عامدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفروا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرًا

(١) بجمع كور عدها ياقوت عشراً وهي سوق الاهواز ورامهرمز وايدج وعسكر مكرم وتستر وجندی سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر

(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان المراق الى همدان في تلك الجبال

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود مايلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ماالسعد فتدب أهل البحرين إلى فارس فقتلوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً خماهم في البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غارياً : عبرت تلك الجنود نحر في جو اصطخر^(١) وبإزاتهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرک الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فمكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل إليه يعزله . أمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه بتأمر سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . كتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبوسبرة بن أبي رهم فساحل بالباس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه . خلصوا إخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها ثابثة البصرة وكانوا أفضل نوابت أمصار ثم انكفثوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجه استغفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فسات في بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فر به زائراً لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضلته وولى عمر بدله المغيرة ابن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

(١) مدينة كبيرة لفارس وهي قاعدة مورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك

فارس حتى تحول ازدشير إلى جور

فتح رامهرمز والدوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس^(١) وهو بمروف كتب اليهم يذكرهم الاحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتبانه أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتوافقوا على النصر فكتب أمراء الثغور إلى عمر فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى الأشعري وكان ولاية البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً إلى الاهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معا أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز وألحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلى تستر وهناك توافقت جنود المصيرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل في الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحمهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالاً وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجوموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولما رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقال أضغ يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسرهم فلك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لآخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو فى المسجد قائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغى أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الاهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية

(١) فارس اسم لولاية واسعة وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) أردشير (٣) دار أبجرد (٤) سابور (٥) قبادخنة

كَانَ اللَّهُ قَدْ خَلَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فَغَلَبْنَاكُمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعَنَا وَلَا مَعَكُمْ فَلَمَّا كَانَ مَعَكُمْ غَلَبْتُمُونَا فَقَالَ عُمَرُ إِنَّمَا غَلَبْتُمُونَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِاجْتِمَاعِكُمْ وَتَفَرَّقْنَا ثُمَّ قَالَ عُمَرُ مَا عَذْرُكَ وَمَا حُجَّتُكَ فِي انْتِفَاضِكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَقَالَ أَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنِي قَبْلَ أَنْ أَخْبِرَكَ قَالَ لَا تَخَفْ ذَلِكَ وَاسْتَسْقِ مَاءً فَاتَى بِهِ فِي قَدَحٍ غَلِيظٍ فَقَالَ لَوْ مِتُّ عَطِشًا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَشْرِبَ فِي مِثْلِ هَذَا نَأْتَى بِهِ فِي إِمَاءٍ يَرْضَاهُ لَجَعَلْتُ يَدَهُ تَرْجِفُ وَقَالَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقْتُلَ وَأَنَا أَشْرِبُ الْمَاءَ فَقَالَ عُمَرُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرِبَهُ فَأَكْفَاهُ فَقَالَ عُمَرُ أَهَيِّدُوا عَلَيْهِ وَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِ الْقَتْلَ وَالْمَعْشِ فَقَالَ لَا حَاجَةَ لِي فِي الْمَاءِ إِنَّمَا أُرِدْتُ أَنْ أَسْتَأْمِنَ بِهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ إِنِّي قَاتِلُكَ قَالَ قَدْ أَمَنْتَنِي فَقَالَ عُمَرُ كَذَبْتَ فَقَالَ أَنَسُ صَدَقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آمَنْتَهُ قُلْتُ لَهُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَخْبِرَنِي وَقُلْتُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرِبَهُ وَقَالَ لَهُ مِنْ حَوْلِهِ مِثْلُ ذَلِكَ فَأَقْبَلَ عَلَى الْهَرَمِ زَانٍ وَقَالَ خَدَعْتَنِي وَاللَّهِ لَا أَتَّخِذُ إِلَّا مُسْلِمًا فَاسْلَمْ فَفَرَضَ لَهُ فِي الْعَطَاءِ عَلَى أَلْفَيْنِ وَأَرْزَلَهُ الْمَدِينَةَ

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ الْوَفْدُ لَعَلَّ الْمُسْلِمِينَ يَفْضُونَ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ بِأَذَى وَبِأُمُورٍ لَهَا مَا يَنْتَقِضُونَ بِكُمْ فَقَالُوا مَا نَعْلَمُ إِلَّا الْوَفَاءَ وَحَسَنَ مَلَكَهَ قَالَ فَكَيْفَ هَذَا فَقَالَ لَهُ الْأَحْنَفُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرَكَ أَنَّكَ نَهَيْتَنَا عَنِ الْإِنْسِيَاكِ فِي الْبِلَادِ وَأَمَرْتَنَا بِالْإِقْتِصَارِ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا وَأَنْ مَلَكَ فَارِسَ حَتَّى يَبِينَ أَظْهَرَهُمْ وَأَنْهُمْ لَا يَزَالُونَ يَسَاجِلُونَنَا مَا دَامَ مَلَكَهُمْ فِيهِمْ وَلَمْ يَجْتَمِعْ مَلَكَانَ قَاتِفًا حَتَّى يَخْرُجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ وَقَدْ رَأَيْتَ أَنَا لَمْ نَأْخُذْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ إِلَّا بِإِنْبِعَاطِهِمْ وَأَنْ مَلَكَهُمْ هُوَ الَّذِي يَبْعَثُهُمْ وَلَا يَزَالُ هَذَا دَائِبُهُمْ حَتَّى تَأْذِنَ لَنَا فَلَنَسْجُ فِي بِلَادِهِمْ حَتَّى نَزِيلَهُ عَنِ فَارِسَ وَنَخْرِجَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ وَعِزُّ أُمَّتِهِ فَهَذَا لَكَ يَنْقَطِعُ رَجَاءُ أَهْلِ فَارِسَ فَقَالَ عُمَرُ صَدَقْتَنِي وَاللَّهِ وَشَرَحْتُ لِي الْأَمْرَ مِنْ حَقِّهِ ثُمَّ قَدِمَتْ الْكُتُبُ عَلَى عُمَرَ بِاجْتِمَاعِ أَهْلِ نِهَاوَنْدَ : فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَ عُمَرَ يَأْذِنُ بِالْإِنْسِيَاكِ

فتح نهاوند^(١)

اجتمع بنهائوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة مملكتهم ونهائوند من بلاد الجبل^(٢) جنوبي همدان فكتب عمر إلى النعمان

(١) مدينة عظيمة في قبة همدان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهي أعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين أصهبان

ابن مقرن يوليه محاربه المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جماعاً عظيماً متحصناً في حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شأوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى في الحروب عن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشأوا وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبي وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أهلك منهم فرء رأيهم وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدي فقال أرى أن تبعث خيلاً تحرق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوا فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم إنما إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا لمقاتلتنا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفيما ما أحب ققبل منه رأيهم وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربي المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقبلوا بالسيوف قتالاً شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واسلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همدان فدخاها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همدان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتوا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسحاب في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتح البلاد وأرسل بالالوية إلى أصحابها وهم :

إلى ذنجان وقزوين وهمدان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليّة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

(١) الأحنف بن قيس النعيمي ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن مسعود السلي ووجه إلى أردشير خرة وسابور (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زعيم السكتاني ووجه إلى فسا ودرا بجرد (٥) سهيل بن عدي ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى بختيار (٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان^(١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجندة نحو أصبهان وقاعدتها جيّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفتنان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم نسيابة فبرز له عبدالله وقال إما أن تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك فقال أحمل فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطمنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوى على الفرس هريا وقال له أثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك إلى عسكري فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجرام ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل جيّ بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جيّ واغلبت من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجيّ خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدي

فتح أذربيجان^(٢)

بيننا نعيم بن مقرن في همدان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج روذبين همدان

(١) إقليم من نواحي الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية (٢) صقع جليل وملكه عظيمة الغالب عليها الجبال وحدتها من رذعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا ويتصل حدّها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة

وقزو بن فسار إليهم وقتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة
فتح الري ^(١)

بعد أن انتهى زعيم من واج الروذ سار إلى الري فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان
المصالح عنهم رأسهم الزبني بن قوله وكتب لهم كتاب صالح ثم وجه أخاه سريد بن
مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلباً ومن هناك كاتبه ملك جراجان ^(٢) بالصالح
فصالحه وكتب له كتاب صالح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب ^(٣)

كان قائد الجيش الذي وجه إلى الباب سراقه بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن
ابن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمناً ليأتيه فأمنه
عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له إني بإزاء عدوك وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب
ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب
والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من الفجج في شيء ولا من
الآرمين وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصغوى
معكم وبارك الله لنا ولكم وجزبنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا
بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوق رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار
إلى سراقه فلقاه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقه قد قبلت ذلك فيمن كان معك على
هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان
يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم
جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقه إلى عمر فأجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم
الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب
ورآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض
من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعله مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء

(١) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوین ٢٧ فرسخاً

وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسب إليها رازی (٢) مدينة عظيمة بين طبرستان
وخراسان (٣) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهي ثغر عظيم

والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به - وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

فتح خراسان (١)

كان يزددجرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها وأطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقي من الأماجيم في الم يفتحهم المسلمون فدأوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبرسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزددجرد إلى مرو الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصفد وملك الصين أما الأحنف فاتبعه إلى مرو الروذ حتى إذا بلغ ذلك يزددجرد سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزددجرد وعبر بمن معه في أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهاء عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده : ولما عبر يزددجرد النهر أته جنود مددأ من ملوك الترك والصفد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لمأحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزددجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعافدوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا من الأماجيم فكانوا كأنهم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فأغلبوا

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زعيم الدؤلي ثم فتح فساو دارا بجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدي كرمان : وفتح حاصم بن عمرو سجستان ، وفتح الحكم بن عمرو التغلي مكران وما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعي فإن عمر ولأه قيادة جيش .

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التي دونها نهر جيحون

لحقائله الا كراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئا من حلية فقال إن هذا لا يبلغ فيكم شيئا فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ووة قالوا نعم قد طابت أنفسنا لجعل تلك الحلية في سبط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فإذا عمر يقضى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس لجلس في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفاً ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبه فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبذ إلى ياحداهما فجلست عليهما وإذا بهما في صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداً نأفأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ما لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معننا من هذا فقالت إني أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طاحه امرأته قال أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلاً وطعامى الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلًا منه ما يتابس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا لجاموا بس من سلت فقال أعط الرجل قال فشربت قليلاً ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس قال مرحبا بسلمة بن قيس ورسوله حدثنى عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصالح العرب إلا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة فلما نظر إلى نصوصها وثب ثم جعل يده فى خاصرته ثم قال لا أشبع الله إذا بطن عمر ثم قال ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشائهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت ما بارك الله فيما اختصصتنى به أقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك فاقة فقسمه فيهم ولست فى حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهى تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الراى الاعلى فى بيت أمير المؤمنين وكانت

المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في الرجال نفسا ثم تبين كيف كان عمر
يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض
إلا أن يردّها عليهم فكيف لانكرون قلوبهم بين يديه بصرفها كيف شاء وكيف أحب
والى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيا بين أيدي
المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق
نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك
في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في جميع المواقف التي زاحفوا فيها أعداءهم
وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون في أمره
كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل في حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل
ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق
والمدينة في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

فهرست الجزء الأول

من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

صفحة	صفحة
٣٤ المحاضرة الرابعة	٣ المحاضرة الأولى
٣٤ الملك بالشام	٣ مباحث التاريخ الإسلامى
٣٥ الإمارة بالحجاز	٣ مايلزم المؤرخ
٣٧ الحكم عند الأعراب فى بواديهم	٤ جزيرة العرب ووصفها
٣٩ المحاضرة الخامسة	٧ أقسام الجزيرة الطبيعية
٣٩ الأخلاق	٨ الوصف الطبيعى لجزيرة العرب
٤٤ لغة العرب	١٠ جو البلاد
٤٨ المحاضرة السادسة	١٠ محاج الجزيرة
٤٨ الكتابة عند العرب	١١ الشعوب العربية
٤٩ علوم العرب	١١ شعب قحطان
٥٢ دين العرب	١٤ المحاضرة الثانية
٥٨ المحاضرة السابعة	١٤ شعب عدنان
٥٨ النسيء	١٥ مساكن العدنانية
٦١ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم	١٦ بدو العرب وحضرم
٦٥ السيرة الأدبية قبل النبوة	١٦ تجارة العرب
٦٧ المحاضرة الثامنة	١٧ صناعة العرب
٦٧ البعثة والدعوة	١٧ أحوال العرب
٧٧ المحاضرة التاسعة	١٧ حال العرب الاجتماعية
٧٧ مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب	٢٥ المحاضرة الثالثة
٧٩ هجرة الطائف	٢٥ حال العرب السياسية
٨٠ العرض على القبائل وإجابة	٢٥ ملك اليمن
الأنصار	٢٩ الملك بالحيرة

صفحة	صفحة
١١٧ المحاضرة الرابعة عشرة	٨١ بيعة الانصار
١١٧ إجلاء بنى النضير	٨٤ الهجرة
١١٨ ذات الرقاع ، بدر الآخرة	٨٥ المحاضرة العاشرة
١١٩ الخندق	٨٥ التشريع المكي
١٢٣ بنى لحيان	٩٣ المحاضرة الحادية عشرة
١٢٣ ذى قرد	٩٣ لم شرع القتال
١٢٤ بنى المصطلق	٩٦ العهود والمواثيق
١٢٤ الحديدية	٩٨ أسرى الحرب
١٢٨ مؤتة	٩٩ حياة المدينة
١٢٩ المحاضرة الخامسة عشرة	١٠٠ المحاضرة الثانية عشرة
١٢٩ فتح مكة	١٠٠ الأعمال الحربية
١٣١ حنين	١٠٠ ودان
١٣٣ تبوك	١٠١ بواط
١٣٤ الشرائع الدينية	١٠١ العشيرة
١٣٤ الشرائع الاجتماعية	١٠١ سفوان
١٣٥ نظام البيوت	١٠٢ بدر الكبرى
١٣٨ المحاضرة السادسة عشرة	١٠٨ الكدر
١٣٨ المعاملات	١٠٨ السويق
١٣٨ الحدود والقصاص	١٠٨ ذى أمر
١٤٠ الدعوة ونتائجها	١٠٨ الفرع
١٤٨ المحاضرة السابعة عشرة	١٠٩ قينقاع
١٤٨ صفة الرسول وأخلاقه	١٠٩ كعب بن الأشرف
١٥٤ البيت النبوى	١١٠ المحاضرة الثالثة عشرة
١٥٧ ختام القرآن	١١٠ أحد
١٥٧ الوفاة	١١٦ يوم الرجيع
١٥٨ المحاضرة الثامنة عشرة	١١٦ حديث بئر معونة

صفحة	صفحة
١٩٦ المحاضرة الحادية والعشرون	١٥٨ الخلافة
١٩٦ عمر بن الخطاب	١٥٨ بيت الخلافة
١٩٦ كيف انتخب	١٦٢ شكل الانتخاب
١٩٧ ترجمة عمر بن الخطاب	١٦٨ المحاضرة التاسعة عشرة
١٩٨ أول خطاب لعمر	١٦٨ انتخاب أبي بكر
١٩٩ الفتوح في عهد عمر	١٧٠ أول خطاب لأبي بكر
٢٠٠ في بلاد الفرس	١٧١ ترجمة أبي بكر
٢٠٣ أمر القادسية	١٧١ أخلاق أبي بكر
٢٠٥ المحاضرة الثانية والعشرون	١٧٣ أخبار الردة
٢٠٥ تمام القادسية فتح المدائن	١٧٦ طلحة الرشيدى
٢١٥ المحاضرة الثالثة والعشرون	١٧٧ بنو تميم ومالك بن نورة
٢١٥ جلولا	١٧٨ بنو حنيفة ومسيلة
٢١٧ تمصير الكوفة	١٧٩ اليمن والاسود العنسى
٢١٨ فتح الجزيرة	١٨٠ البحرين والحطم
٢١٩ فتح الأهواز	١٨١ المحاضرة العشرون
٢٢٠ غزو فارس من البحرين	١٨١ ظهور الأمة العربية
٢٢١ فتح رامهرمس والسوس وتستر	١٨٢ دولة الفرس
٢٢٢ فتح نهاوند	١٨٣ الرومان
٢٢٤ فتح أصبهان	١٨٣ غزو الروم
٢٢٤ فتح أذربيجان	١٨٤ غزو الفرس
٢٢٥ فتح الرى	١٩٤ إدارة البلاد في عهد أبي بكر
٢٢٥ فتح الباب	١٩٥ رزق الخليفة
٢٢٦ فتح خراسان	١٩٦ أرزاق الجند
٢٢٦ فتوح أهل البصرة	١٩٦ أرزاق العمال
	١٩٦ وفاة أبي بكر

To: www.al-mostafa.com